أخبار الجاحظ

تركي بن الحسن الدهماني

أمواج
للطباعة والنشر والتوزيع

أخبـــــار
الجاحـــظ

تركي بن الحسن الدهماني

أخبـــــار الجاحـــظ

أمواج
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى2012م

رؤيتنا: العلم والثقافة أساسان متينان للحياة السوية على طريق النجاح والعمل الإبداعي
رسالتنا: نشر الإبداعات في شتى صنوف العلم والمعرفة بما يسهم في التطور مع المحافظة على الموروث لإعداد جيل صالح يرتقي بالأمة نحو الآفاق ويضعها في صدارة الأمم.
قيمنـــــا: منارات ترشدنا لتحقيق رؤيتنا ورسالتنا

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2012/1/227)

ISBN
9789957528461

أمواج للطباعة والنشر والتوزيع
الأردن - عمّــان
ماركا الشمالية - دوار المطار - ماركا سنتر
تلفاكس: 0096264888361
E-mail: amwajpub@yahoo.com

أمواج AMWAJ
للطباعة والنشر والتوزيع

فهرس المحتويات

بسم اللـه الرحمن الرحيم
اللـهمّ يَسِر وأعن برحمتك
﴿خطبة الكتاب﴾

الْحَمْد لـلـه رَبّ العالمين، وَالصَّلَاة وَالسَّلَام عَلَى الْهَادِي الأمين، مُحَمَد بَـن عَبـد اللــه صَلَّى اللـه عَلَيْه وعَلَى آلِه الطَّيِّبِين الطاهرين، وعَلَى صَحَابَتِه الْغُرّ الميامين وعَلَى التَّابِعِين لَهم بِإِحْسَان إِلَى يَوِم الدَّيْن أَمَا بَعَد: فَهَذَا كِتَاب نَافع إِن شَاء اللـه تَعَالَى، مُتَعَلِّق بسَيِّد البلَاغة فِي عَصْرِه، هَو الأديب الْبَلِيغ أَبو عُـثَمَان عَمَـرٍو بَـن بَحَـر الجـاحظ، الَّـذِي سَـطَع بَيَانَـه بالبيـان والتبيين، وَكَلَامَه الْبَلِيغ والسديد، وَكُنْت قَد عَمِلَت سَنَة ثَلَاثَة وَعِشْرِين وأربعمائة وَأَلْف مَـن هَجَّرْت سَيِّد الْأَوَّلِين وَالْآخِرِين، بَحثاً لَا تَزِيدُ صَفحَاتَها عَـنْ الثلَاثـين أَو يَزيـد قَلـيلاً، وَكُنْـت فِي تِلْك السَنَة طالباً فِي كلية الْآدَاب فِي السَنَة الثَّالِثَـة، وَلَكِنَّنِـي لَـم أكملـه لسـبب مَـن الْأَسْـبَاب لَانشغالي بِأَعْمَال أُخْرَى.

والحقيقة أَن الأديب الجاحظ يَسْتَحِقّ العناية الفائقة لَدَى الباحثين، فَهُو نَادِرَة زَمَانُه وَلَه مَن الْكَلَام الْفَصِيح، وَالَّذِي لَـم يَسْـبِق لَـه مثيـل، ناهيـك بمؤلفاتـه الَّتِـي زَخْـرَة مكتباتنـا الإسلامية بعلَمه الوفِير، وتعليقاته الْحِسَان فِي الْأَدَب وَالشَّعَر حَتَّى فِي التواريخ والأحداث.

عَلَى كُل حَال، فالجاحظ عَلَى مَا فِيه مِنْ مُعَتقدٍ اعْتِزَالي بَدّعي، وَإِن أَتَّهِم فِي دِيْنَـه إِلاَّ أَننا وَلَا بُدّ مِنْ أَن نَجِد فِي عَلَمِه الْأَدَبي، وَأَخَبـارِه وَتَعليِقاتـهِ الشَّيْءُ الْكَثِـير الْحَسَـن، وَهَـذَا مَـا دَعَانِي إِلَيّ تصَنيفُ هَذَا الْكِتَاب سَائلاً الَمولى جَلّ فِي عُلَاه الْقَبُول وَالثَّوَاب مِـنْ عِنْـدَهِ وَالْحَمْـد الـلـه أوَلَاً وأخراً.

ترجمة الجاحــظ

ذكر اسمه ولقبه وكنيته:

هو عمرو بن بحر بن محبوب الكتاني البصري قيل أنه كناني وقيل: بـل كنـاني بـولاء، قال يموت بن المزارع أن الجاحظ: هو مولى أبي القملس عمرو بن قلع الكتاني، ثـم الفقيهـي، وكان جد الجاحظ أسود وكان جمالاً لعمرو بن قلع، ويقال له: فزاره، وقال يموت: والجـاحظ خال أمي[1].

قلت: وفي رواية: أن يموت بن المزرع، هو ابن أخت الجاحظ[2].

وعن لقبه: سمي بالجاحظ لجحوظ عينيه، ويكنى بأبي عثمان.

صفتــه:

كان الجاحظ قبيح الخلقة، قصير القامة، وأسود اللون.

وقال فيه أحد الشعراء:

لَــو يَمْسَــخ الْخِنْزِيــر مُسَــخاً ثَابِتًــا   مَــا كَــان إِلَا دُون قَــبَّح الجَــاحِظ[3]

(1) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (157/10).

(2) سير أعلام النبلاء (13/10).

(3) الفرق بين الفرق للبغدادي ص 163.

ويحكي لنا الجاحظ حكاية له مع المتوكل قال: «ذُكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده فلما رآني أستبشع منظري»، فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني[1].

ويحكي لنا الجاحظ أيضاً قصة أخرى بشأن قبح خلقته، فيقول: «وأما الأخرى ـ يعني امرأة ـ فأنها أتتني وأنا على باب داري، فقالت: لي إليك حاجة وأريد أن تمشي معي، فقمت معها إلى أن أتت إلى صائغ يهودي وقالت له: مثل هذا ! وانصرفت.

فسألت الصائغ عن قولها، فقال أنها أتت إليَّ بفص، وأمرتني أن أنقش عليه صورة شيطان، فقلت لها ياستي ما رأيت الشيطان !فأتت بك، وقالت: «ما سمعت».

ذكر مولده:

قال ياقوت في معجم الأدباء: قال الجاحظ: أنا أسن من أبي نواس بسنة ولدت في أول سنة خمسين ومائة وولد في آخرها.

قال أبو الحسن الدهماني غفر الله له: على ذلك يكون عمر الجاحظ حين مات سنة خمس وخمسين ومائتين، خمس ومائة، وهذا مبالغ فيه، فحين مات لم يتجاوز بضع وتسعين، وعلى ذلك فولادته تكون ستين ومائة، وهو المرجح والصحيح إن شاء الله، وهناك أقوال أخر تقول: أن ولادته سنة خمس وخمسين ومائة. وقيل: تسع وخمسين ومائة. وقيل: ثلاث وستين ومائة، وخمس وستين ومائة.

(1) وفيات الأعلام لابن خلكان (141/3).

ذكر نشأته:

قال المزرباني: حدث المادي، قال: حدثني من رأى الجاحظ يبيع الخبز والسمك بسيحان[1].

قال أبو الحسن الدهماني غفر الله له: على ذلك تكون نشأة الجاحظ كانت بسيطة، فإنه كان قليل العمل، ولذلك كانت أمه تلومه كثيراً، على انهماكه بجمع الكتب والمطالعة، فالجاحظ كان يجمع الكتب، ويقرأ بنهم شديد، مما جعله ينصرف عن العمل، ولا يبالي من أين يأتي بلقمة العيش، ويروي أنه عاد يوماً إلى البيت لتناول الطعام، فقدمت له طبقاً تكدست عليه الكتب بدل الأطعمة، فقال ما هذا؟أجابت: هذا الذي تجيء به. فخرج مغتماً، وجلس في الجامع، ومويس بن عمران جالس، فلما رآه مغتماً قال له: ما شأنك؟ فحدثه الحديث، فأدخله المنزل وقرب إليه الطعام، وأعطاه خمسين دينار فدخل السوق واشترى الدقيق وغيره، وحمله الحمالون إلى داره، فأنكرت الأم ذلك، وقالت: من أين لك هذا؟ قال: من الكراريس التي قدمتها لي[2].

ذكر شيوخ الجاحظ:

قال أبو الحسن الدهماني غفر الله له: لا ريب أن للجاحظ علماء وشيوخ، أخذ عنهم العلم في شتى فروعه، فقد سمع من الأصمعي، وكان كثير الرواية عنه.

وأبو عبيدة معمر بن المثنى، وأبي زيد الأنصاري، وأخذ النحو عن أبي الحسن الأخفش، وكان صديقه، وأخذ الكلام عن النظام، ثم إنه تلقف

(1) سيحان: نهر بالبصرة والخبر في معجم الأدباء (74/15).
(2) انظر طبقات المعتزلة لابن المرتضي ص 48.

الفصاحة من العرب شفاهاً بالمربد، وكذلك أخذ عن أستاذ الأصمعي خلف الأحمـر، والـذي اشتهر برواية الشعر ونحله، وكان الجاحظ معجباً بخلف كثيراً، رغم أنه لم يجالسـه إلاَّ قليلاً يقول الجاحظ في ذلك: وقد جلستُ إلى أبو عبيدة، والأصمعي، ويحيى بن نجيم، وأبي مالـك عمرو بن كركرة، مع من جالست من رواة البغداديين، فما رأيتُ أحداً منهم قصـد إلى شـعر في النسيب، فأنشده وكان خلف يجمع ذلك كله[1].

ثم إن الجاحظ قد اكتسب الثقافة اليونانية عن طريـق علـماء الكـلام، وعـن طريـق مصاحبته لحنين بن إسحاق وسلموية.

وحدث عن: أبي يوسف القاضي، وثمامة بن أشرس، وحجاج بن محمد.

ذكر علم الجاحظ وقول العلماء فيه:

قال أبو الحسن الدهماني غفر الـلـه له: تبين لنا وبجلاء، أن الجاحظ صرف اهتمامـه إلى اللغة والأدب وبقية فنون العلم من منطق وغيرها، لكنـه لم يلقـي بـالاً بـالقرآن الكـريم والحديث النبوي الشريف، اللذان هما الأساس في حياة المسلم، وهذا وحـده ولا ريـب كـان سبباً في انحرافه العقدي، ولذلك نجده يصف من يحفظ الحديث الشريف بالحشوية، يروى عن أبـو بكـر بـن أبي داود، قـال: كنـت بـالبصرة، فأتيـت منـزل الجـاحظ عمـرو بـن بحـر - فاسـتأذنت عليـه، فـاطلع علـيّ مـن خوخـه، فقـال: مـن هـذا؟فقلت: رجـل مـن أصـحاب الحديث.فقال: ومتى عهد تني أقول بالحشوية؟فقلت: إني ابـن أبي داود. فقـال: مرحبـاً بـك وبأبيك، فنزل ففتح لي، وقال: أدخل، إيش تريد؟فقلت: حدثني بحديث.قال: أكتـب، حـدثنا

(1) البيان والتبيين للجاحظ (91/4).

حجاج، عن حماد، عن ثابت أن النبي ﷺ صلى على طنفسة.قلت: حديث آخر، فقال: ابن أبي داود لا يكذب[1].

علق الذهبي رحمه اللـه تعالى على هذا الخبر فقال: كفانا الجاحظ المؤنة، فما روي من الحديث إلا النزر اليسير، ولا هو متهم بالحديث، بلى في النفس من حكاياته ولهجته، فربما جازف، وتلطخه من غير بدعه أمر واضح، ولكنه أخباري علامة، صاحب فنون وأدب باهر، وذكاء بيِّن عفا اللـه عنه[2].

قال أبو الحسن الدهماني غفر اللـه له: يروى له مع أبو العيناء رواية، أنهما وضعا حديثاً، قال إسماعيل بن الصفّار حدثنا أبو العيناء قال: أنا والجاحظ وضعنا حديث فدك، فأدخلناه على الشيوخ ببغداد، فقبلوه إلا شيبة العلوي فإنه قال: لا يشبه آخر هذا الحديث أوله.

فلم يقبله، قال الصفّار: كان أبو العيناء يحدث بهذا بعد ما تاب[3].

وللعلماء قول في علم الجاحظ وعقيدته:

قال ابن حجر العسقلاني رحمه اللـه تعالى: وكان من أئمة البدع.

وقال أبو سليمان الخطابي رحمه اللـه تعالى: هو مغموس في دينه.

وذكر أبو الفرج الأصبهاني: أنه كان يرمى بالزندقة، وأنشد في ذلك أشعاراً.

وقال ثعلب رحمه اللـه تعالى: ليس بثقة، ولا مأمون.

---

(1) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (158/10).
(2) سيد أعلام النبلاء (15/10).
(3) تاريخ الإسلام (374/18).

وقال أبو العيناء: قال الجاحظ: كان الأصمعي منانياً، فقال لـه العبـاس بـن رسـم: لا والـلـه، ما كان منانياً، ولكن تذكر حين جلست إليه تسأله، فجعل يأخـذ نعلـه بيـده، وهـي مخصوفة عن يده، ويقول: نعم قناع القدري، فعلمت أنه يعنيك فقمت وتركته.

ويروى أن ثعلب رحمه الـلـه تعالى قال: كان كذاباً على الـلـه، وعـلى رسـوله، وعـلى الناس.

وقال أبو منصور الأزهري رحمه الـلـه تعالى في مقدمة تهذيب اللغة: وممـن تكلـم في اللغات بما حصره في لسانه، وروى عن الثقات ما ليس مـن كلامهـم: الجـاحظ، وكـان أوتي بسطة في القول، وبياناً عذباً في الخطاب، ومجالاً في الفنون غير أن أهـل العلـم ذمـوه، وعـن الصدق دفعوه.

وقال ابن حزم رحمه الـلـه تعالى في «**الملل والنحل**»: كان أحد المجان الضلال، غلـب عليه الهزل، ومع ذلك، فإنا ما رأينا له في كتبه تعمد كذبة يوردها مثبتـاً لهـا، وإن كـان كثـير الإيراد لكذب غيره.

وقال ابن خشبة رحمه الـلـه تعالى في «**اختلال الحديث**»: ثـم نصـير إلى الجـاحظ، وهو أحسنهم للحجة استنارة وأشدهم تلطفاً لتعظيم الصغير حتى يعظم، وتصـغير العظـيم حتى يصغر، ويكمـل الشيء، وينقصـه، فنجـده مـرة يحـتج للعثمانيـة عـلى الرافضـة، ومـرة للزندقة على أهل السنة، ومرة يفضل علياً، ومرة يؤخر ويقول: قال رسـول الـلــه ﷺ كـذا، وتبعه.

وقال المسعودي رحمه الـلــه تعـالى: ولا يعلـم أحـد مـن الـرواة وأهـل العلـم أكـثر كتبـاً منـه، مـع قولـه العثمانيـة، وقـد كـان أبـو الحسـن المـدائني كثـير الكتـب، إلا أن أبـا

الحسن المدائني كان يؤدي ما سمع، وكتب الجاحظ ـ مع انحرافه المشهور ـ تجلو ضد الأذهان، وتكشف واضح البرهان، لأنه نظمها أحسن نظم، ووصفها أحسن وصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ، وكان إذا تخوف ملك القارئ وسآمة السامع خرج من جد إلى هزل. ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة، وله كتب حسان: منها كتاب البيان والتبيين، وهو أشرفها، لأنه جمع فيه بين المنثور والمنظوم وغرر الأشعار ومستحسن الأخبار، وبليغ الخطب[1].

قال الجماز رحمه الله تعالى: ويذكر من الفواحش ما يجل رسول الله عن أن يذكر في كتاب ذكر أحد منهم فيه، فكيف ورقة، أو بعد سطر أو سطرين، ويعمل كتاباً يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين، فإذا صار إلى الرد عليهم يجوز للحجة كأنه إنما أراد تبنيهم على ما لا يعرفون، ويشكك الضعفة، ويستهزئ بالحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم، وذكر الحجر الأسود، وأنه كان أبيض، فسوده المشركون، قال: وقد كان يجب أن يبيضه المسلمون حين أسلموا وأشياء من أحاديث أهل الكتاب، وهو مع هذا أكذب الأمة، وأوضعهم لحديث، وأنصرهم للباطل[2].

قال أبو الحسن الدهماني غفر الله له: ويروى عنه أنه كان تاركاً للصلاة، وهذا ولا ريب من تعلق بعلم الكلام_والقول الباطل، وترك المنهج السليم والعلم الشرعي الصحيح، واتجه نحو علم لا طائل منه ترجى، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(1) مروج الذهب (181/4).
(2) هذه الأقوال كلها في لسان الميزان للعلامة ابن حجر رحمه الله تعالى (409/4).

فقد ذكر أبو بكر الخطيب رحمه اللـه تعالى في «تاريخ بغداد»، وابن عساكر رحمه اللـه تعالى في «تاريخ دمشق»:عن أبـو عمـر أحمـد بـن أحمـد السوسـنجردي العسـكري ـ حـدثني ابـن أبي الـذيال المحـدث ـ لـبسر مـن رأى قـال: حضرت وليمـة حضرهـا الجـاحظ، وحضرت صلاة الظهر، فصلينا وما صلى الجـاحظ وحضرت صـلاة الـعصر فصـلينا، ومـا صـلى الجاحظ، فلما عزمنا على الانصراف قال الجاحظ، لصاحب المنزل: إني مـا صـليت لمـذهب أو لسبب ـ أخبرك به، فقال له أو فقيل له: ما أظن أن لك مذهباً في الصلاة إلا تركها[1].

وقال الإمام الذهبي رحمه اللـه تعالى: كان من بحور العلم، وتصانيفه كثيرة. وقـال أيضاً في الجاحظ: كان ماجناً قليل الدين، له نوادر.

وقال فيه في موضع آخر: وكان أحد الأذكياء[2].

قال أبو الحسن الدهماني غفر اللـه له ولوالديـه: بـل أحـد النقـاد الـذين مهـروا في الأدب والشعر، وسوف نذكر ذلك للجاحظ مالـه مـن تعليقـات حسـنة في موضـعه إن شـاء اللـه تعالى.

وقال الإمام الذهبي رحمه اللـه تعالى في الجاحظ: وكان واسع النقل كثـير الاطـلاع، من أذكياء بني آدم وأفرادهم وشياطينهم[3].

قال أبو الحسن الدهماني غفر اللـه له: ولأبي حيان التوحيدي رأي في الجاحظ فكثير ما يذكر له محاسنه، وكان يسلك مسلك الجاحظ.

---

(1) تاريخ دمشق لابن عساكر (45 / 441) وتاريخ بغداد لأبو بكر الخطيب (10 / 160).
(2) سير إعلام النبلاء للذهبي (10 / 13).
(3) تاريخ الإسلام للذهبي (373/10).

قال أبو حيان في كتابه «تقريظ الجاحظ»:حدثني أبـو سـعيد السـيرافي: وهمـك مـن رجل، وناهيك من عالم، وشرعك من صدوق.قـال: حـدثنا جماعـة مـن الصـابئين الكُتـاب: أن ثابت بن قرة قال: ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفس أولهم: **عمر بن الخطاب** ـ رضي الله عنه ـ في سياسته ويقظته، وحذره وتحفظه، ودينه، ويقينـه، وجزالتـه وبذالتـه، وصرامتـه، وشهامته، وقيامه في صغير أمره، وكبيره بنفسه، مع قريحة صافية، وعقل وافر ولسان غضب، وقلب شديد، وطوية مأمونة وعزيمة مأمونة، وصدر منشرح وبال منفسـح، وبديهـة نضـوح، وروية لقوح، وسر طاهر، وتوفيق حاضر، ورأي مصيب، وأمـر عجيـب، وشـأن غريـب. دعـم الدين وشيد بنيانه، وأحكم أساسه، ورفع أركانه وأوضـح حجتـه وأثـار برهانـه، ملـك في ذي مسكين، مـا جـنح في أمـر إلى ونَـا، و لا غـض طرفـه عـلى خنـا، ظهارتـه كالبطانـة، وبطانتـه كالظهارة، جرح وأسا، ولان وقسا، ومنع وأعطى، واستحذى وسطا، كل ذلك في اللـــه وللـــه، لقد كان من نوادر الرجال.

والثاني: الحسن بن أبي الحسن البصري ـ رحمه اللـه تعالى ـ[1].

فلقد كان من داري النجوم علماً وتقوى، وزهداً وورعاً، وعفة ورقة، وتألهاً وتنزهاً، وفقهاً ومعرفة، وفصاحة ونصاحة، مواعظه تصل إلى القلوب، وألفاظـه تلتـبس بالعقول،ومـا أعـرف لـه ثانياً، ولا قريباً ولا مدانياً، كان منظره وفق مخبره، وعلانيتـه في وزن سريرتـه عـاش سـبعين سـنة لم يقرف بمقالة شنعاء، ولم يُزن بريبة ولا فحشاء، سليم الـدين، نقـي الأديـم محـروس الحـريم، يجمع مجلسه ضروبـاً مـن النـاس، وأصـناف اللبـاس، لمـا يوسـعهم مـن بيانـه، ويفـيض علـيهم

(1) قلت: قد وضعنا للأمام الحسن البصري كتاباً أسميناه «الزخرف القصري في مناقب الحسن البصري».

بافتنانه، هذا يأخذ عنه الحديث وهذا يلقن منه التأويل، وهذا يسمع منه الحلال والحرام، وهذا يتبع في كلامه، وهذا يجرد له المقالة، وهذا يحكي له الفتيا، وهذا يتعلم الحكم والقضاء وهذا يسمع الموعظة، وهو في جميع ذلك كالبحر العجاج تدفقاً، وكالسراج الوهاج تألقاً، ولا تنس موافقة ومشاهدة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عند الأمراء وأشباه الأمراء، بالكلام الفصل، واللفظ الجزل، والصدر الرحب، والوجه الصُلب، واللسان العضب كالحجاج، وفلان، مع شارة الدين وبهجة العلم ورحمة التقي، لا تثنيه لائمة في الله، ولا تذهله رائمة عن الله، يجلس تحت كرسيه قتادة صاحب التفسير، وعمرو وواصل، صاحبا الكلام، وابن أبي إسحاق صاحب النحو، وفرقد السبخي، صاحب الرقائق، وأشباه هؤلاء ونظراؤهم، فمن ذا مثله؟ ومن ذا يجري مجراه؟.

والثالث: أبو عثمان الجاحظ ـ خطيب المسلمين، وشيخ المتكلمين، ومدرة المتقدمين والمتأخرين، إن تكلم حكي سحبان البلاغة، وان ناظر ضارع النظام في الجدال، وأن جد خرج في مسك عامر بن عبد قيس، وإن هزل زاد علي مزبد حبيب القلوب، ومراح الأرواح، شيخ الأدب، ولسان العرب، كتبه رياض زاهرة، ورسائله أفنان مثمرة، ما نازعه منازع إلاَّ رشاه آنفاً ولا تعرض له متعرض إلا قدم له التواضع استبقاء الخلفاء تعرفه، والأمراء تصفه وتنادمه، والعلماء تأخذ عنه والخاصة تسلم له، والعامة تحبه، جمع بين اللسان والقلم، وبين الفطنة والعلم، وبين الرأي والأدب، وبين النثر والنظم وبين الذكاء والفهم، طال عمره، وفشيت حكمته، ووطئ الرجال عقبه، وتهادوا أدبه، وافتخروا بالانتساب إليه، ونجحوا بالاقتداء به، ولقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب.

وقال أبو حَيَان: قلت لأبي محمد الأندلسي وكان في عداد أصحاب السيرافي: قد أختلف أصحابنا في مجلس أبي سعيد السيرافي في بلاغة الجاحظ، وأبي حنيفة صاحب النبات، ووقع الرضى بحكمك فما قولك؟ فقال: أنا أحقر نفسي عن الحكم لهما أو عليهما، فقلت: لابد من قول، قال: أبو حنيفة أكثر نداوة وأبو عثمان أكثر حلاوة، ومعاني أبو عثمان لائطة بالنفس سهلة في السمع، ولفظ أبو حنيفة أعذب وأغرب وأدخل في أساليب العرب(1).

قال أبو الحسن الدهماني غفر الله له ولوالديه: وكان أبو حيان قد ألف كتاباً في تقريظ الجاحظ، فإنه كان ممن تأثر به، وسلك مسلك الجاحظ في تصانيفه.

قال ياقوت رحمه الله تعالى: وكان جاحظياً يسلك في تصانيفه مسلك الجاحظ، ويشتهي أن ينتظم في سلكه.

وقال جمال الدين بن نباته المصري رحمه الله تعالى في الجاحظ: وتأمل كتب الفلاسفة، ومال إلى الطبيعيين منهم، وساد علي المتكلمين بفصاحته، وحسن عبارته(2).

وللنظام شعر قاله في تلميذه الجاحظ:

حبي لعمرو جوهر ثابت ... وحبه لي عرض زائل

به جهاتي الست مشغولة ... وهو إلى غيري بها مائل

ذكر شغف الجاحظ بالكتب:

قلت: لم يكن الجاحظ يكتفي بقراءة كتاب، بل كان ينظر فيها ولشغفه بالكتب، كان يكتري دكاكين الوراقين ويثبت فيها للنظر.

(1) انظر المقابسات لأبي حيان التوحيدي ص 53 و ص 54 ص 57 وص 58.
(2) سرح العيون لأبي نباته المصري ص 249.

قال أبو هفان: لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فأنه لم يقع بيده كتاب قط إلاَّ أستوفى في قراءته كائناً ما كان، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوارقين ويَبتُ فيها للنظر، والفتح بن خاقان، فإنه كان يحضر لمجالسة المتوكل، فإذا أراد القيام لحاجةٍ أخرج كتاباً من كمه أو خفهِ وقرأه في مجلس المتوكل إلى حين عودِهِ إليه حتى في الخلاء، وإسماعيل بن أسحق القاضي، فإني ما دخلتُ إليه إلا رأيته ينظر في كتابٍ، أو يقلب كتباً أو ينفضها[1].

قال أبو الحسن الدهماني غفر الله له ولوالديه: وللجاحظ كلام مليح في مدح الكتاب موصفاً إياها بأحسن وصف قال في كتابه «الحيوان»[2]: ونعم الذخر والعقد هو، ونعم الجليس والعدة، ونعم النشرة والنزهة، ونعم المشتغل والحرفة، ونعم الأنس لساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلاد الغربة، ونعم القرين والدخيل، ونعم الوزير والنزيل، والكتاب وعاء مليء علماً وظرف حشي ظرفاً، وأناء شحن مزاحاً وجداً إن شئت كان أبين من سحبان وائل[3]، وإن شئت كان أعيا من باقل[4]. وإن شئت ضحكت من نوادره، وأن شئت عجبت من غرائب فرائده، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده، وإن شئت ألهتك طرائفه، وأن شئت أشجتك مواعظه، ومن لك بواعظ مُلهٍ وبزاجر مُغَرٍ، وبناسكٍ فاتكٍ، وبناطق أخرس وببادر حار، وفي البارد الحار، يقول الحسن بن هاني:

قل لزهير إذا انتحى لشدا … اقلل أو أكثر أنت مِهذارُ

(1) معجم الأدباء لياقوت (75/16)، وخاص الخاص للثعالبي ص 73.
(2) انظر الحيوان للجاحظ (32/1/ 44).
(3) هو رجل يضرب به المثل في الفصاحة.
(4)باقل: رسم رجل يضرب به المثل في العي.

سخنت من شدة البرودة حتى ... صرتَ عندي كأنك النارُ
لا يعجبُ السامعون من صفتي ... كذلك الثلج باردُ حارُ

ومن لك بطبيبٍ أعرابي، ومن لك برومي هندي، وبفارسي يوناني، وبقديم مولد، وبميت ممتع، ومن لك بشيْ يجمع لك الأول والآخر، والناقص والوافر، والخفي والظاهر، والشاهد والغائب، والرفيع والوضيع، والغث والسمين، والشكل وخلافه، والجنس وضده.

وبعد فمتى رأيت بستاناً يحمل في ردنٍ، وروضةً تقلب في حجر، وناطقاً ينطق عن الموتى ويتُرجم عن الأحياء؟ ومن لك بمؤنسٍ لا ينام إلا بنومك ولا ينطق إلا بما تهوى، آمن من الأرض، وأكتم للسر من صاحب السر، وأحفظ للوديعة، من أرباب الوديعة، وأحفظ لما أُستحفظ من الآدميين، ومن الأعراب المتعربين، بل من الصبيان قبل اعتراض الاشتغال، ومن العميان قبل التمتع بتمييز الأشخاص حين العناية تامة لم تنقص، والأذهان فارغة لم تنقسم، والإرادة وافره لم تتشعب والطينة لينة فهي أقبل ما تكون للطبائع، والقضيب رطب فهو أقرب ما يكون من العلوق حين هذه الخصال لم يخلق حديدها ولم يوهن غربها ولم تتفرق قواها وكانت كما قال الشاعر:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلباً خالياً فتمكنا

ويقول في موضع آخر: والكتاب هو الجليس الذي لا يطريك، والصديق الذي لا يغريك، والرفيق الذي لا يملك، والمستميح الذي لا يستريثك، والجار الذي لا يستبطيك، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق، ولا يعاملك بالمكر، ولا يخدعك بالنفاق ولا يحتال لك بالكذب.

والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال أمتاعك، وشحذ طباعك وبسط لسانك، وجود بنانك وفخم ألفاظك، وبجح نفسك، وعمر صدرك، ومنحك تعظيم العوام وصداقة الملوك وعرفت به في شهرٍ ما لا تعرفه من أفواه الرجال في دهرٍ، مع السلامة من الغرم، ومن كدَّ الطلبِ، ومن الوقوف ببابَ المكتسب بالتعليم، ومن الجلوس بين يدي من أنت أفضل منه خُلقاً، وكرم منه عرقاً ومع السلامة من مجالسة البُغَضاء، ومقارنة الأغبياء.

والكتاب هو الذي يعطيك بالليل كطاعته بالنهار، ويعطيك في السفر كطاعته في الحضر، ولا يعتل بنومٍ، ولا يعتريه كلال السهر، وهو المعلم الذي أن افتقرت إليه لم يحُقرك، وأن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة، وأن عزلت لم يدع طاعتك، وان هبت ريح أعاديك لم ينقلب عليك، ومتى كنت منه متعلقاً بسبب أو معتصماً بأدنى حبلٍ، كان لك فيه غنىً من غيره، ولم يضطرك وحشة الوحدة إلى جليس السُوء، ولو لم يكن من فضله عليك وإحسانه إليك إلاَّ منعه لك من الجلوس على بابك، والنظر إلى المارة بك، مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم، ومن فضول النظر، ومن عادة الحرص، ومن ملابسة صغار الناس وحضور ألفاظهم الساقطة، ومعانيهم الفاسدة، وأخلاقهم الرديئة وجهالاتهم المذمومة، لكان في ذلك السلامة ثم الغنيمة، وإحراز الأصل مع استفادة الفرع، ولو لم يكن في ذلك إلا أنه يشغلك عن سخف المنى، وعن أعتياد الراحة، وعن اللعب وكل ما أشبه اللعب، لقد كان على صاحبه أسبغ النعمة، وأعظم المنَّة.

وقد علمنا أن أفضل ما يقطع به الفراغ نهارهم، وأصحاب الفكاهات ساعات ليلهم، الكتاب وهو الشيء الذي لا يُرى لهم فيه مع النيل أثر في ازدياد

تجربةٍ، ولا عقلٍ، ولا مرؤةٍ، ولا في صَوّن عرضٍ، ولا في أصلاح دينٍ، ولا في تثمير مالٍ، ولا في ربّ صنيعةٍ، ولا في ابتداء إنعام.

قلت: قد أحسن الجاحظ في وصفه ومديحه للكتاب، وله أيضاً كلام مليح في الخط ومقدار الحاجة إليه حيث قال: وأقول لولا الخطوط لبطلت العهود والشروط والسجلات والصكاك، وكل أقطاع وكل أنفاقٍ وكل أمانٍ وكلّ عهدٍ وعقدٍ، وكل جوار وحِلف، ولتعظيم ذلك، والثقة به والاستناد إليه، كانوا يدعون في الجاهلية من يكتب لهم ذكر الحلف والهدنة، تعظيماً للأمر، وبعيداً من النسيان[1].

❁ ❁ ❁

(1) انظر الحيوان للجاحظ (1 / 48).

ذكر أنتساب كتبه لمن تقدمه وأسباب ذلـك

قلت: كان الجاحظ ممن حُسَد على صنعته في أول الأمـر، ولـذلك كـان يؤلـف ويخـرج كتبه بأسماء مستعارة، ويـذكر لنـا الجـاحظ إن كتبـه لاقـت عنـد النـاس في أو الأمـر بـالإهمال والسخط، ويعلل سبب ذلك بالحسد، ويعني بهم أهل العلم في عصره، قال في رسـالته: «فصـل ما بين العداوة والحسد»[1] «وإني ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن في الدين والفقـه، والرسـائل والسيرة، والخطب والخراج والأحكام، وسائر فنون الحكمـة، وأنسـبه إلى نـفسي، فيتواطـأ عـلى الطعن فيه جماعة من أهل العلـم، بالحسـد المركـب فـيهم، وهـم يعرفـون براعتـه ونصـاعته، وأكثر ما يكون هذا منهم إذا كـان الكتـاب مؤلفـاً لملـكٍ معـه المقـدرة عـلى التقـديم والتـأخير، والحطّ والرّفع، والترغيب والترهيب، فإنهم يهتـاجون عنـد ذلـك اهتيـاج الإبـل المغتلمـة، فـإن أمكنتهم حلية في إسقاط ذلك الكتاب عند السَّيد الذي أُلُف له فهو الذي قصـدوه وأرادهُ، وإن كان السَّيد المؤلف فيه الكتاب نحريراً نقاباً، ونقريساً بليغاً، وحاذقـا فطنـاً، وأعجـزتهم الحليـة، سرقوا معاني ذلك الكتاب وألفوا من أعراضه، وحواشيه كتاباً وأهدوه إلى ملك آخر، و متُوا إليـه به[2]، وهـم قـد ذمـوه وثلبـوه لمـا رأوه منسـوباً إليَّ، وموسـوماً بي.وربمـا ألفـت الكتـاب الـذي

(1) رسائل الجاحظ (1/ 350) لعبد السلام محمد هارون.
(2)أي توسلوا به إليه، والمت: التوسل.

هو دونه في معانيه وألفاظه، فأترجمه باسم غيري وأحيله على من تقدمني عصره مثل ابن المقفع، والخليل، وسلم صاحب بيت الحكمة، ويحيى بن خالد، والعتابي، ومن أشبه هؤلاء من مؤلفي الكتب، فيأتيني أولئك القوم بأعيانهم الطاعنون على الكتاب، الذي كان أحكم من هذا الكتاب، لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته عليَّ، ويكتبونه بخطوطهم، ويصيرونه إماماً يقتدون به، ويتدارسونه بينهم، ويتأدبون به، ويستعملون ألفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم ويروونه عني لغيرهم من طلاب ذلك الجنس فتثبت لهم به رياسة ويأتم بهم قوم فيه، لأنه لم يتُرجم باسمي، ولم ينسب إلى تأليفي. ولربما خرج الكتابُ من تحت يدي محُصفاً كأنه متن حجر أملس بمعانٍ لطيفة محكمة وألفاظ شريفة فصيحة، فأخاف عليه طعن الحاسدين، إن نسبته إلى نفسي، وأحُسد عليه من هم بنسبته إليه لجودة نظامه وحسن كلامه، فأظهره مبهماً غُفلاً في أعراض وصول الكتب التي لا يُعرف وضّاعها، فينالون عليه انهيال الرَّمل، ويستبقون إلى قراءته سابقَ الخيل يوم الحلبة إلى غايتها.

وحسد الجاهل أهَونُ شوكةُ وأذل مَحِناً، من حسد العارف الفطنِ، لأن الحاسد الجاهل يبتدر إلى الطعن على الكتاب في أول وهلة يُقرأ عليه، من قبل استتمام قراءته ورقة واحدة، ثم لا يرضى بأيسر الطعن وأخفه حتى يبلغ منه إلى أشده وأغلظه، من قبل أن يقف على فصوله وحدوده، وليس ثلبة مفسراً مفصلاً، ولكنه يجمل ذلك ويقول: هذا من أوله إلى آخره، وباطل من ابتدائه إلى انقضائه، ويحسب أنه كلما أزداد إغراقا وطعناً إطناباً في الحمل على واضع الكتاب، كان ذلك أقرب إلى القبول منه».

قال أبو الحسن الدهماني غفر اللـه له ولولديه: ربما سـبب ذلـك لـيس حسـداً مـن عند أنفس هؤلاء، الذين ذكرهم الجـاحظ، وأظـن أن الجـاحظ لـيس بثقـة ولا مـأمون عنـد هؤلاء حتى ينظروا في تواليفه، وإن كانت كما ذكر كتبه محكمـة ومتقنـة، والطـاعنون عليـه من أهل العلم كثير، ذكرنا أقوالهم فيه، في موضع سابق، وما لهم عليـه مـن مآخـذ جمـة في كتبه، وفي الجاحظ نفسه، إلاّ أننا إذا أنصفنا الجـاحظ فـإن كتابـه الشـهير «البيـان والتبيـين» يكاد يكون أفضل ما قدم الجاحظ من كتب، ولهذا مدحه العلماء وأطنبـوا في مدحـه، ولعـل الجاحظ وضع هذا الكتاب لتحسين صورته.

ذكر مديح العلماء في كتب الجاحظ

قلت: وعلى كل حال قد نجح الجاحظ في حيلته تلك، وأكبر الظن أن بيانه وفصاحته دور أكبر في شهرته، وبعد صيته، فصارت مصنفاته تُقرأ وباسمه، وهو رجل فكاهي ظريف حمل الناس على محبته وجمع كتبه.

قال أبو حيان: ومن عجيب الحديث في كتبه ما حدثنا به علي بن عيسى النحوي، الشيخ الصالح قال: سمعت ابن الأخشاد شيخنا أبا بكر يقول: ذكر أبو عثمان في أول كتاب الحيوان أسماء كتبه ليكون ذلك كالفهرست، ومر بي في جملتها الفرق بين النبي والمتنبئ، وكتاب دلائل النبوة، وقد ذكرهما هكذا على التفرقة»، وأعاد ذكر الفرق في الجزء الرابع لشيء دعاه إليه، فأحببت أن أرى الكتابين ولم أقدر إلاَّ على واحد منهما وهو كتاب دلائل النبوة، وربما لقب بالفرق خطأً، فهمني ذلك وساءني في سوء ظفري به فلما شخصت من مصر ودخلت مكة ـ حرسها اللـه تعالى ـ حاجاً أقمَتُ منادياً بعرفات ينادي ـ والناس حضور من الآفاق على اختلاف بلدانهم وتنازح أوطانهم، وتباين قبائلهم وأجناسهم، من المشرق إلى المغرب، ومن مَهبَّ الشمال إلى مَهبَّ الجنوب، وهو المنظر الذي لا يشابهه منظر «رحم اللـه من دلنا على كتاب الفرق بين النبي والمتنبئ لأبي عثمان الجاحظ على أي وجهٍ كان».

قال: فطاف المنادي في ترابيع عرفات وعاد بالخيبة، وقال: حجب الناس مني، ولم يعرفوا هذا الكتاب ولا اعترفوا به.

قال ابن أخشاد: وإنما أردت بهذا أبلغ نفسي عُذرها.

قال ياقوت: وحسبك بها فضيلة لأبي عثمان أن يكون مثل ابن الأخشاد ـ وهو في معرفة علوم الحكمة وهو رأس عظيم من رؤوس المعتزلة ـ يستهام بكتب الجاحظ حتى ينادي عليها بعرفات والبيت الحرام، وهذا الكتاب موجود في أيدي الناس اليوم لا يكاد تخلو خزانة منه ولقد رأيت أنا منه نحو مائة نسخة أو أكثر[1].

قلت: وليس هذا فحسب، بل هين لمن يبحث عن كتاب، فهذا سَّلاَم بن يزيد الأندلسي والذي ما أن قرأ رسالة التربيع والتدوير حين وصلت الأندلس، وكتابه الِشهير البيان والتبيين، رحل إلى المشرق، وتلمذ على يديه.

قال أبو محمد الحسن بن عمرو النجيرمي كنت بالأندلس فقيل لي: إن هاهنا تلميذاً لأبي عثمان الجاحظ يعرف بسلام بن يزيد، ويكنى أبا خلف، فأتيته فرأيت شيخاً هماً[2] فسألته عن سبب اجتماعه مع أبي عثمان ولم يقع أبو عثمان إلى الأندلس فقال: كان طالب العلم بالمشرق يسرف عند ملوكنا بلقاء أبي عثمان، فوقع إلينا كتاب التربيع والتدوير له، فأشاروا إليه. ثم أردفه عندنا كتاب البيان والتبيين له فبلغ الرجل الصكاك[3]، بهذين الكتابين قال: فخرجت لا أعرج على شيء حتى قصدت بغداد فسألت عنه فقيل: هو بسر من رأى، فأصعدتُ إليها فقيل لي: قد أنحدر إلى البصرة، فانحدرتُ إليه وسألتُ عن منزلِهِ فأرُشدتُ ودخلت إليه فإذا هو جالس وحواليه عشرون صبياً ليس فيهم ذو لحيةٍ غيره، فدهشت فقلت أيكم أبو عثمان؟ فرفع يده وحركها في وجهي وقال: من أين؟

(1) معجم الأدباء لياقوت (101/16).

(2) الهم بالكسر: الشيخ الفاني.

(3) كناية عن علو قدرة ورفعة شأنه.

قلت: من الأندلس فقال: طينة حمقاء، فما الاسم؟.قلت: سَّلاَم.قال: اسم كلب القراد، أبن من؟.قلت: ابن يزيد. قال: بحق ما صرت أبو من؟.قلت: خلفٍ.قال: كنيته قرد زبيدة، ما جئت تطلب؟.قلت: العلم.قال: أرجع بوقت، فإنك لا تفلح.قلت له: ما أنصفتني، فقد اشَتملتُ على خصال أربع: جفاء البلدية، وبُعد الشقة، وغرة الحداثة، ودهشةِ الداخلِ. قال: فترى حولي عشرين صبياً ليس فيهم ذو لحية غيري، ما كان يَجِبُ أن تعرفني بها؟.قال: فأقمتُ عليه عشرين سنةً[1].

وقال أبو الفضل بن العميد: ثلاثة علوم الناس كلهم عيال فيها على ثلاثة أنفس: أما الفقه فعلى أبي حنيفة، لأنه دَوّن وخلد ما جعل من يتكلم فيه بعدهُ مشيراً إليه ومخُبراً عنه.

وأما الكلام فعلى أبي الهُذيل، وأما البلاغة والفصاحة واللسنَ والعارضة فعلى أبي عثمان الجاحظ.

وحدث أبو القاسم السيرافي قال: حضرنا مجلس الأستاذ أبي الفضل فقصر رجل بالجاحظ[2] وأزرى عليه، وحلم الأستاذ عنه.

فلما خرج قلت له: سكت أيها الأستاذ عن هذا الجاهل في قوله الذي قال مع عادتك بالرد على أمثاله. فقال: لم أجد في مقابلته أبلغ من تركه على جهله، ولو وافقته وبينتُ له النظر في كتبه صار إنسان، يا أبا القاسم كتب الجاحظ تُعلمَ العَقلَ أولاً والأدب ثانياً[3].

---

(1) معجم الأدباء (104/16).

(2) أي قلل من منزلة الجاحظ وقدره.

(3) معجم الأدباء (16/ 103).

ذكر آثار الجاحـظ العلميــة

قُلْتُ: أُختلف في عدد مصنفات الجاحظ، والتـي ذكـر بعـض منهـا في مقدمـة كتابـه «**الحيوان**» وهي نحو ستة وثلاثون كتاباً.

وذكر ابن النديم أسماء كتب الجاحظ وعددها واحد وعشرون ومائه.

وأورد ياقوت الحموي في «معجم الأدباء»: بنحو ثلاثة وعشرون كتاباً.

وذكر أحمد الهاشمي في «جواهر الأدب»: للجاحظ أكثر من مائتي كتاب. وعلى كـل حال، لم يكن الجاحظ حين ذكر بعض مصنفاته في مقدمته تلك ليعـرض قائمـة مـن مؤلفاتـه كلها، ليس الأمر كذلك ولو شاء لوضع فهرسة لجميع كتبـه. ثـم أن بعـض مصـنفاته لا تـزال مفقودة، ككتاب نظم القرآن وغيرها لا تزال حبيسة أسيرة.وذكـر **حـاجي خليفـة في «كشـف الظنون**» عدد مؤلفات الجاحظ خمس وسبعين كتاباً.

أذن هناك اختلاف بَيّن في عدد مؤلفات الجاحظ، وأكبر الظن أن ما ذكره خليفة ليس فيه إصابة في شيء، لكننا نعذره، كونه لا يعلم إلاَّ ما ذكر، أو قل لم يذكر إلا الذي عرفه ومـن العجب أن أكثر الذي ذكره من أسماء لكتب الجـاحظ لـيس موجـود حاليـاً وأصـبح مفقـود. ولستُ أدري هل من بارقةُ أملٍ في ظهور آثار الجَاحِظ، قل علم ذلك عند اللـه.

قائمة بكتب الجاحــظ:

1ـ كتاب البيان والتبيين.

2ـ كتاب النبي والمتبني.

3ـ كتاب المعرفة.

4ـ كتاب جوا بات كتاب المعرفة.

5ـ كتاب مسائل كتاب المعرفة.

6ـ كتاب الرد علي أصحاب الإلهام.

7ـ كتاب نظم القرآن.

8ـ كتب مسائل القرآن.

9ـ كتاب فضيلة المعتزلة.

10ـ كتاب الرد على المشبهة.

11ـ كتاب الإمامة على مذهب الشيعة.

12ـ كتاب حكاية قول أضاف الزيديه.

13ـ كتاب العثمانية.

14ـ كتاب الأخبار وكيف تصح.

15ـ كتاب الرد على النصارى.

16ـ كتاب عصام المرُيد.

17ـ كتاب الرد على العثمانية.

18ـ كتاب إمامة معاوية.

19ـ كتاب إمامة بني العباس.

20ـ كتاب الفتيان.

21ـ كتاب القواد.

22ـ كتاب اللصوص.

23ـ كتاب ذكر مابين الزيدية والرافضة.

24ـ كتاب صياغة الكلام.

25ـ كتاب المخاطبات في التوحيد.

26ـ كتاب تصويب علي في تحكيم الحكمين.

27ـ كتاب وجوب الإمامة.

28ـ كتاب الأصنام.

29ـ كتاب الوكلاء والموكلين.

30ـ كتاب الشارب والمشروب.

31ـ كتاب افتخار الشتاء والصيف.

32ـ كتاب المعلمين.

33ـ كتاب الجواري.

34ـ كتاب نوادر الحسن.

35ـ كتاب البخلاء.

36ـ كتاب الفخر ما بين عبد شمس ومخزوم.

37ـ كتاب العرجان والبرصان.

38ـ كتاب فخر القحطانية والعدنانية.

39ـ كتاب التربيع والتدوير.

40ـ كتاب الطفيليين.

41ـ كتاب أخلاق الملوك.

42ـ كتاب الفتيا.

43ـ كتاب مناقب جند الخلافة وفضائل الأتراك.

44ـ كتاب الحاسد والمحسود.

45ـ كتاب الرد علي اليهود.

46ـ كتاب الصرحاء والهجناء.

47ـ كتاب السودان والبيضان.

48ـ كتاب المعاد والمعاش.

49ـ كتاب النساء.

50ـ كتاب التسوية بين العرب والعجم.

51ـ كتاب السلطان وأخلاق أهله.

52ـ كتاب الوعيد.

53ـ كتاب البلدان.

54ـ كتاب الأخبار.

55ـ كتاب الدلالة على أن الإمامة فرض.

56ـ كتاب الاستطاعة وخلق الأفعال.

57ـ كتاب المقينين والغناء والصنعة.

58ـ كتاب الهدايا منحول.

59ـ كتاب الإخوان.

60ـ كتاب الرد على من ألحد في كتاب اللـه عز وجل.

61ـ كتاب آي القرآن.

62ـ كتاب الناشئ والمتلاشي.

63ـ كتاب حانوت عطار.

64ـ كتاب التمثيل.

65ـ كتاب فضل العلم.

66ـ كتاب المزاح والجد.

67ـ كتاب جمهرة الملوك.

68ـ كتاب الصوالجة.

69ـ كتاب ذم الزنا.

70ـ كتاب التفكر والاعتبار.

71ـ كتاب الحجر والنبوة.

72ـ كتاب آل إبراهيم بن المدبر في المكاتبة.

73ـ كتاب إحالة القدرة على الظلم.

74ـ كتاب أمهات الأولاد.

75ـ كتاب الاعتزال وفضله على الفضيلة.

76ـ كتاب الأخطار والمراتب والصناعات.

77ـ كتاب أحدوثة العالم.

78ـ كتاب الرد على من زعم أن الإنسان جزء لا يتجزءا.

79ـ كتاب أبي النجم وجوابه.

80ـ كتاب التفاح.

81ـ كتاب الأنس والسلوة.

82ـ كتاب الكبر المستحسن والمستقبح.

83ـ كتاب نقض الطب.

84ـ كتاب الحزم والعزم.

85ـ كتاب عناصر الآداب.

86ـ كتاب تحصين الأموال.

87ـ كتاب الأمثال.

88ـ كتاب فضل الفرس.

89ـ كتاب علي الهملاج.

90ـ كتاب الرسالة إلى أبي الفرج بن نجاح في امتحان عقول الأولياء.

91ـ كتاب رسالة أبي النجم في الخراج.

92ـ كتاب رسالته في القلم.

93ـ كتاب رسالته في فضل اتخاذ الكتب.

94ـ كتاب رسالته في كتمان السر.

95ـ كتاب رسالته في مدح البنيذ.

96ـ كتاب رسالته في ذم البنيذ.

97ـ كتاب رسالته في العفو والصفح.

98ـ كتاب رسالته في أثم السُكر.

99ـ كتاب رسالته في الأمل والمأمول.

100ـ كتاب رسالته في الحلية.

101ـ كتاب رسالته في ذم الكُتّاب.

102ـ كتاب رسالته في مدح الكُتّاب.

103ـ كتاب رسالته في مدح الوُراق.

104ـ كتاب رسالته في ذم الوُراق.

105ـ كتاب رسالته فيمن يسمى من الشعراءِ عَمراً.

106ـ كتاب رسالته اليتيمة.

107ـ كتاب رسالته في فرط جهل يعقوب بن إسحاق الكندي.

108ـ كتاب رسالته في الكرم إلى أبي الفرج بن نجاح.

109ـ كتاب رسالته في موت أبي حرب الصفار البصري.

110ـ كتاب رسالته في الميراث.

111ـ كتاب في الأسد والذئب.

112ـ كتاب رسالته في الكيمياء.

113ـ كتاب الاستبداد والمشاورة في الحرب.

114ـ كتاب رسالته في القضاة والولاة.

115ـ كتاب الملوك والأمم السالفة والباقية.

116ـ كتاب رسالته في الرد على القولية.

117ـ كتاب العالم والجاهل.

118ـ كتاب النرد والشطرنج.

119ـ كتاب غش الضاعات.

120ـ كتاب خصومة الحول والعور.

121ـ كتاب ذوي العاهات.

122ـ كتاب المغنين.

123ـ كتاب أخلاق الشطار[1].

(1) انظر معجم الأدباء لياقوت الحموي (106/16 - 110).

قلت: لم يذكر ياقوت كتاب «الحيوان» ضمن مؤلفات الجاحظ.

أما حاجي خليفة فإنه ذكر هذا الكتاب ضمن مصنفات الجاحظ والتي بلغت خمس وسبعين كتاباً.

كذلك كتاب «المحاسن والأضداد» لم يذكره ياقوت، بينما حاجي خليفة ذكره.

والكتابين مطبوع ومتداول بين الناس. والـلـه أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

ذكر أشهر كتب الجاحظ وأحسنها

أولاً: كتاب البيان والتبيين:

وأشهر هذه الكتب وأحسنها كتاب «البيان والتبيين»، وقد لاقت أعجاب العلماء وطلاب العلم، فإنك ما أن تبدأ بقراءته صفحة صفحة، لا تتوقف عن ذلك البتة، فهو كتاب بحق شيق ومفيد للغاية.

وأذكر أني قرأته مرتين لما فيه من الفوائد الجمة، والفصول البليغة ويحسن بنا العود إليه.

يقول أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري رحمه الله تعالى في كتابه «الصناعتين» عند الكلام على كتب البلاغة: «وكان أكبرها وأشعرها كتاب البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بحر الجاحظ وهو لعمري كثير الفوائد، جم المنافع، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة والفقر اللطيفة، والخطب الرائعة، والأخبار البارعة وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء وما نبه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة، وغير ذلك من فنونه المختارة، ونعوته المستحسنة إلاَّ أن الإبانة عن حدود البلاغة، وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه ومنتشرة في إثنائه، فهي ضالة بين الأمثلة لا توجد إلاَّ بالتعامل الطويل والتصفح الكثير»[1].

(1) كتاب الصناعتين للعسكري ص 4.

وعبد الرحمن بن محمد بن خلدون صاحب «المقدمة» فيقول عند الكلام على علم الأدب: «وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين: وهي أدب الكتَّاب ـ المعروف بأدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد »، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها، وفروع عنها»[1].

قلت: فما أن فرغ الجاحظ من تأليف كتابه «البيان والتبيين» قام بإهدائه إلى الوزير ابن أبي داود، يقول الجاحظ: وأهديتُ كتاب البيان والتبيين، فأعطاني خمسة آلاف دينار[2].

والكتاب وضعه الجاحظ لتعليم الناشئة، والكتَّاب أيضاً، ومعرفة أصول النطق ووضع أمثلة لذلك، ويظهر العديد من أقوال أهل الفصاحة والبلاغة من خطباء وشعراء، كذلك تحدث في كتابه، عن البيان وتعريفه، ووضع شواهد قرآنية وأحاديث نبوية شريفة، وهي بحق تعد من المصادر القيمة والتي لا يستغنى عنها طالب علمٍ، في الأدب وغيره، ولذلك أستحسن علماء عصره ومن بعدهم هذا الكتاب، وأخذ العلماء من بعده يخطون خُطى الجاحظ في التأليف، كابن قتيبة، في كتابه «عيون الأخبار»، وابن عبد ربه الأندلسي، في كتابه الشهير «العقد الفريد» والمبرد في كتابه «الكامل في اللغة والأدب».

رده على الشعوبية:

قلت: ومما قد أمتاز به كتاب «البيان والتبيين»، هو الرد المفحم على أولئكَ الشعوبيين، والذين ظهروا وازدادوا ظهوراً في عصر الجاحظ، فوضع جزء يرد

(1) مقدمة ابن خلدون ص 554.
(2) معجم الأدباء لياقوت (106/16).

فيه على أفتراتهم الكاذبة وأقوالهم الباطلة، قال الجاحظ: «ونبدأ على اسم الله تعالى، بذكر مذهب الشعوبية، ومن يتحلى باسم التسوية، وبمطاعنهم على خطب العرب، بأخذ المخصرة[1] عند مناقلة الكلام، ومساجلة الخصوم بالموزون والمفقى.

والمنثور الذي لم يقف، وبالإيجاز عند المتح[2] وعند مجاثاة الخصم، وساعة المشاولة وفي نفس المجادلة والمحاولة.

وكذلك الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة، واستعمال المنثور في خطب الحمالة، وفي مقامات الصلح وسل السخيمة[3]، والقول عند المعاقرة، والمعاهدة، وترك اللفظ يجري على سجيته وعلى سلامته، حتى يخرج على غير صنعه، ولا اختلاف تأليف، ولا ألتماس قافية، ولا تكلف لوزن.

مع الذي عابوا من الإشارة بالعصي، والاتكاء على أطراف القسي، وخدّ الأرض بها، واعتمادها عليها، إذا أستحفزت في كلامها، وأفتنت يوم الحفل في مذاهبها.

ولزومهم العمائم في أيام الجوع، وأخذ المخاصر في كل حال، وجلوسها في خطب النكاح، وقيامها في خطب الصلح، وكل ما دخل في باب الحمالة وأكد شأن المحالفة، وحقق حرمة المجاورة».

وقال الجاحظ في موضع آخر: «وقالت الشعوبية ومن يتعصب للعجمية، القضيب للإيقاع، والقناة للقار، والعصا للقتال، والقوس للرمي».

(1) المختصرة: هي ما امسك الخطيب بيده من عصا أو شاكل ذلك.
(2) المتح: الاستسقاء من البئر.
(3) السخيمة: الحقد والكراهية.

وقال في موضع آخر: «فتفهم عني، فهمك الله، ما أنا قائل في هذا، وأعلم أنك لم ترَ قوماً قط أشقى من هؤلاء الشعوبية، ولا أعدى على دينه، ولا أشد استهلاكاً لعرضه، ولا أطول نصباً، ولا أقل غُنماً، من أهل هذه النحلة.

وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على أكبادهم، وتوقدَ نار الشنآن في قلوبهم، وغليان تلك المراجل الفائزة، وتسعد تلك النيران المضطرمة.

ولو عرفوا أخلاق كل ملة، وزي كل لغة، وعللهم في اختلاف إشارتهم وآلاتهم، وشمائلهم وهيأتهم، وما علة كل شي من ذلك، ولِمَ اختلقوه ولِمَ تكلفوه، لأراحوا أنفسهم، وتخففت مؤنتهم على من خالطهم.

قال أبو الحسن الدهماني غفر الله له ولوالديه: ثم شرع الجاحظ في وضع أمثلة من أخبار وأشعار، مفحماً أولئك الشعوبيين، وهم من الفرس، والهند والروم، ومن هم على شاكلتهم.

ومما جاء في هذا الكتاب من مواضيع ذكرها الجاحظ، موضوع ذكر فيه ما نزل في البيان من قرآن، كذلك أدب الضيافة، ومن أشتهر بالخطابة من الشعراء، كذلك من أشتهر في علم الإنسان عند العرب، وخطباء بني هاشم، وخطباء الخوارج، وخطباء بعض القبائل، وخطباء هُذيل، وخطباء الأنصار، وذكر من أشتهر بالبيان من النساء.

ثم تطرق إلى صفة بلاغة النبي ﷺ وخُلقهُ، وأقوال متفرقة من كلام أبي بكر الصَّديق، وعُمَر بنُ الخطَاب ﵁، ونماذج من خطب عليّ بن أبي طالب ﵁، وبعض خطب الصحابة الكرام ﵃ أجمعين. ثم ذكر أخلاط من شعر وأحاديث ونوادر، وهو كتاب بحق جم المنافع، غزير الفوائد.

ثانياً: كتاب البخلاء:

قال أبو الحسن الدهماني غفر الله له ولولديه: والكتاب هذا يتحدث عن صنف من الناس وأخلاقهم، ولا ريب أن البخل موجود في كل عصر ومصر، والجاحظ ذكر أعلام في عصره عُرفوا بالبخل، وقبل أن يتطرق الجاحظ في سيرهم وأحوالهم، قال في مقدمة كتابه: «ولكَ في هذا الكتاب ثلاثة أشياء: تبين حجة طريفة، أو تعرف حيلة لطيفة أو استفادة نادرة عجيبة، وأنت في ضحك منه إذا شئت، وفي لهو إذا مللت الجد»[1].

ويبدو أن هناك من طلب إلى الجاحظ عمل كتاب في البخلاء، لكنه لم يسمه، يقول في المقدمة: «وقد كتبنا لك أحاديث كثيرة مضافة إلى أربابها، وأحاديث كثيرة غير مضافة إلى أربابها، إما بالخوف منهم، وإما بالإكرام لهم، ولولا أنك سألتني هذا الكتاب لما تكلفته، ولما وضعتُ كلامي موضع الضيم والنقمة، فإن كانت لائمة أو عجز فعليك، وإن كان عذر فلي دونك».

قال أبو الحسن الدهماني غفر الله له ولولديه: ويبدو من قول الجاحظ أنه كان يخشى أن يذكر بعض البخلاء بأسمائهم حتى لا ينقمون عليه بظهور عيوبهم.

يقول: «وهذا كتاب لا أُغرَك منه، ولا أسُترُ عنك عيبهُ، لأنه لا يجوز أن يكمل لما تريده، ولا يجوز أن يوفى حقه كما ينبغي له، أن هاهنا أحاديث كثيرة متى أطلعنا منه حرفاً عرف أصحابها، وأن لم نسمهم، ولم نرد ذلك بهم، وسواء

(1) البخلاء ص 29.

سميناهم، أو ذكرنا ما يدل على أسمائهم منهم الصديق، والوليّ، والمستور، والمتجمل، وليس يفي حُسَن الفائدة لكم بقبح الجناية عليهم».

وختم كتابه بأطراف من علم العرب في الطعام، قال الجاحظ: «احتجنا عند التطويل، وحين صار الكتاب طويلاً كبيراً، إلى أن يكون قد دخل فيه من علم العرب وطعامهم، وما يتمادحون به، وما يتهاجون به، شيء وأن قل، ليكون الكتاب قد انتظم جمل هذا الباب. ولولا أن يخرج من مقدار شهوة الناس، لكان الخبر عند العرب والأعراب أكثر من جميع هذا الكتاب»[1].

ويروي لنا الجاحظ في هذا الكتاب، ما حصل له مع محفوظ النقاش والذي دعاه إلى الضَحك عليه:

قال الجاحظ: «صحبني محفوظ النقاش من مسجد الجامع ليلاً فلما صرتُ قرب منزله، وكان منزله أقرب إلى مسجد الجامع من منزلي، سألني أن أبيت عنده، وقال: أين تذهب في هذا المطر والبرد، ومنزلي منزلك، وأنت في ظلمة وليس معك نار، وعندي لبأ[2] لم ير الناس مثله، وتمر ناهيك به جودة، لا تصلح إلا له؟ فملت معه، فأبطأ ساعة ثم جاءني بجام لباء وطبق تمر، فلما مددت، قال: يا أبا عثمان أنه لباء وغلظه[3] وهو الليل وركوده، ثم لسيله مطر ورطوبة، وأنت رجل قد طعنت في السن، ولم تزل تشكو من الفالج طرفاً ومازال الغليل[4] يسرع إليك، وأنت في

(1) البخلاء ص 312.
(2) يعني اللبن.
(3) ينبهه بأن اللبن لبأ وهو ثقيل على المعدة.
(4) يعني العطش.

الأصل لست بصاحب عشاء، فإن أكلت اللبأ ولم تبالغ كنتَ لا آكلاً ولا تاركاً، وحرشت طباعك، ثم قطعت الأكل أشهى كان إليك، وإن بالغت بتنا في ليلة سوء من الاهتمام بأمرك، ولم نعد لك نبيذاً ولا عسلاً.وإنما قلت هذا الكلام لئلا تقول غداً كان وكان، والله قد وقعت بين نابي أسد، لأني لو لم أجئك به، وقد ذكرته لك، قلت بخل به، وبدأ له فيه، وإن جئت به، ولم أحذرك منه، ولم أذكرك كل ما عليك فيه، قلت: لم يُشفق عليَّ ولم ينصح.فقد برئت إليك من الأمرين جميعاً، فإن شئت فأكله وموته، وأن شئت فبعض الاحتمال، ونوم على سلامة، قال الجاحظ: فما ضحكتُ قط كضحكي تلك الليلة، ولقد أكلته جميعاً، فما هضمه إلاَّ الضحك والنشاط والسرور، فيما أظن، ولو كان معي من يفهم طيبَ ما تكلم به لأتى عليَّ من الضحك، أو لقضي عليَّ، ولكن ضحك من كان وحده لا يكون على شطر مشاركة الأصحاب»[(1)].

قُلْت: وللجاحظ مع البخلاء مواقف وأخبار سنذكره في موضعه إن شاء الله تعالى.

❁ ❁ ❁

(1) البخلاء للجاحظ ص 193.

ثالثاً: كتاب المحاسن والأضداد:

قال الجاحظ في مقدمته: وهذا كتاب وسمته: «بالمحاسن والأضداد» لم أسبق إلى نحلته، ولم يسألني أحد صنعه، ابتدأته بذكر محاسن الكتابة، والكتب، وختمته في ذكر شيء من محاسن الموت، والله يكلؤه[1] من حاسد إذا حسد.

قلت: والكتاب هذا مشكوك في نسبته إلى الجاحظ والله أعلم، وموضوعات الكتاب شيق لما حمله من آداب وفنون فمن ذلك: محاسن الكتابة والكتب، مساوئ اللحن في اللغة، محاسن المخاطبات، محاسن المكاتبات، محاسن الجواب، محاسن حفظ اللسان، محاسن كتمان السِّر، محاسن الشكر، محاسن المشورة، محاسن الصدق، محاسن العفو، محاسن الصبر على الحبس، محاسن المودة، محاسن الولايات، وغير ذلك من الموضوعات.

ولو تأملنا فيها لوجدناها قد أخُذت أخَذاً من كتب الجاحظ، كالبيان والتبيين، والحيوان، مما يدل على أن كتاب المحاسن والأضداد منحول للجاحظ، وليس هو من وضعه.

ولو نظرنا إلى مقدمة الكتاب، فإنه نص مأخوذ من رسالة الجاحظ في رسالته: «فصل ما بين العداوة والحسد»[2]. وهذا وحده كافٍ بأن هذا الكتاب ليس للجاحظ. وإنما تلقفه مؤلفه من كتب الجاحظ ونسبها إليه، ثم أنه أيضاً تلقف مؤلفه من كتب أخرى والله أعلم.

(1) يكلؤه: يحرس ويحفظ.
(2) المحاسن والأضداد ص 18.

رابعاً: كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان:

قلت: لعل من ينظر إلى هذا العنوان يظن أنه كتاب هزل، وما هو كذلك، بل كله جد.

قال الجاحظ في مقدمته: «وإنه كتاب جدّ غيرُ هَزلُ، لما كتبتهُ لك، وبالله التوفيق»[1].

قلت: تناول الجَاحِظ بأدبٍ رفيع، أخبار ذو العاهات بأسلوب رائق، وذكر أن هؤلاء أصحاب العاهات من الأشراف الذين خلدت بهم الأرض، وقيل فيهم الأشعار، ويذكر طرفاً منهم، وما قيل فيهم وكله افتخار بما أصيبوا به وبعضه تعييراً.

ومن هؤلاء الذين ذكرهم: أبو طالب بن عبد المطلب عم نبي الله ﷺ ووالد عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان قد عير من بعض نسائه بالعرج، فقال في ذلك شعراً:

قَالَت عَرِجتَ فقَد عَرجتُ فما الَّذي ... أنكـرتِ مِـنْ جَلـدِي وَحُسَـن فعَـالِي

وأنـا ابـن بجـدتها في صبابتهـا ... وسَـليلُ كـلُ مُسـودَ مفضـالِ

أدع الرفاجـة لا أريـد نماءهـا ... كـيما أفيـدُ رغائـبَ الأمـوالِ

وَأكـفُ سـهمي عـن وجـوهِ جمـةٍ ... حَتَّـى تصـيبَ مقِاتـلَ البخُـالِ

الرفاجة: التجارة والتثمير.

وقال أبو طالب قولاً هو أجمل وأرجح من قول الجميع وذلك أنه قال وفسر:

---

(1) البرصان والعرجان ص 7.

أنَــا يــومَ الســلمِ مكفــيُ   وَيــومَ الحــربَ فـــارسُ
أنَـــا للخميســـة أنـــــفُ   حَـينَ مَـا للخَمِـيس عـاطِسُ

فزعم كم ترى أنه إذا كان في السَّلم فهو لا يحتاجُ مع الكفاية إلى ابتذال نفسه في حوائجه، وإذا كان في الحربِ فهو فارسُ يبلغ جميع إرادته[1].

ونموذج آخر ذكره الجاحظ للعميان، مِنْهم بَشَار بَن برَد الشَّاعِر الْمَشْهُور فِي الْعَصْر العَبَاسيّ، وَكَنَّيْتُه أَبوُ مَعَاذ، وَلَقَبُه المرعث، وَكَان يَفْخَر بالعَمى وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ:

إذَا وِلِــدَ المولــودُ أعمــى وجَدتــه   وجــدك أهــدى مــن بَصِــيرِ وَأحَــولاَ
عَمِيــتُ جنبــاً والــذكاءُ مِــنْ العمــى   فجَئــتُ عَجِيــبَ الظـنَّ لِلعلـم مِعقـلَا
وَغــاضَ ضَــياءِ العَــينِ للعَلــمِ رَافــدُ   وَقَلــبُ إذَا مَــا ضَّــيعَ النَّــاسُ حَصَّــلاَ[2]

ونموذج آخر في كتاب البرصان والعميان، يقول الجاحظ: وممن فخر بالبرص ثم من بني رزام المحجّلُ، وكان بساقيه وضَحَ، واسمه معاوية بن حزن بن موألة بن معاوية بن الحارث، وقد رأس وسُمَي المحجّلُ على الكناية من البياض، والكناية من البرص، وهو الذي يقول:

يــا مــي لا تســتنكري تحويلــي   ووضــحاً أوفى عــلى خصــيلي
فــإن نعَــتَ الفَــرسِ الرجِيــلِ   يكُمــلُ بــالغُرَّة والتحِجيــلِ[3]

(1) البرصان والعميان للجاحظ ص 18 - ص 19.
(2) البرصان والعميان للجاحظ ص 20.
(3) البرصان والعميان للجاحظ ص 21.

وذكر الجاحظ في كتابه هذا، ومـن العرجـان، ثـم مـن أصـحاب الفتـوح والزحـوف، موسى بن نصير[1].

وذكر الجاحظ أيضاً من العرجان: ثم من أهل الشرف والجـمال المنعـوت، عمـر بـن عبد الحميد بن عبد الرحمن زيـد بـن الخطـاب، وقـد ولي الـيمن لأبي العبـاس، وكـان يـدَعَ الخروج لكثرة نظر الناس إليه[2].

قلت: ونكتفي بهذا القدر مما حـواه هـذا الكتـاب القـيم، وقـد أحسـن الجـاحظ في وضعه وأبدع.

(1) البرصان والعميان للجاحظ ص 126.
(2)البرصان والعميان للجاحظ ص 127.

خامساً: رسائل الجاحــظ:

قُلْت: وَهِي عبارة عَن أَرْبَعَة أَجْزَاء، جَمْعَهُ وحَققهُ وشَرَحهُ الْعَلَامَة الْكَبِير عَبد السَّـلَام مُحَمَد هَارُون أثابهُ الـلـه تَعَالَى، وَهَذِه الرَسائل تَعُد بِحَقّ رَسائل بَلِيغَة خَطها الأدَيِب البَـارِع وَالمتفَنن أَبوُ عُثَمَان الجَاحِظ.

وبلغ عدد هذه الرسائل جملةً نحو سِتُ وأربُعونَ رسالةً.

ففي الجــزء الأول:

1ـ مناقب الترك.

2ـ المعاش والمعاد.

3ـ كتمان السر وحفظ اللسان.

4ـ فخر السودان على البيضان.

5ـ في الجد والهزل.

6ـ في نفي التشبيه وهي رسالة إلى الوزير أبي الوليد محمد بن أبي داود.

7ـ في كتاب الفتيا.

8ـ رسالة إلى أبي الفرج بن نجاح الكاتب.

9ـ فصل مابين العداوة والحسد.

10ـ ضاعات القواد.

والجزء الثانــي:

1ـ رسالة في النابتة وهي إلى الوزير أبن أبي داود.

2ـ كتاب الحجاب.

3ـ مفاخرة الجواري والغلمان.

4ـ كتاب القيان.

5ـ ذم أخلاق الكُتَّاب.

6ـ كتاب البغال.

7ـ الحنين إلى الأوطان.

والجزء الثالـث:

1ـ الحاسد والمحسود.

2ـ المعلمين.

3ـ التربيع والتدوير، وهي رسالة وجهها إلى أحمد بن عبدالوهاب.

4ـ في مدح النبيذ وصفة أصحابه.

5ـ طبقات المغنين.

6ـ النساء.

7ـ مناقب الترك، وهي رسالة وجهها إلى الفتح بن خاقان وزير المتوكل.

8ـ حجج النبوة.

9ـ خلق القرآن.

10ـ الرد على النصارى.

والجزء الرابع ويتألف من:

1ـ الرد على المشبهة.

2ـ مقالة العثمانية.

3ـ المسائل والجوابات في المعرفة.

4ـ المعاد والمعاش.

5ـ الجد والهزل.

6ـ الوكــــلاء.

7ـ الأوطان والبلدان.

8ـ البلاغة والإيجاز.

9ـ تفضيل البطن على الظهر.

10ـ النبل والتنبل وذم الكبر.

11ـ المودة والخلطة.

12ـ استحقاق الإمامة.

13ـ إستنجار الوعد.

14ـ تفضيل النطق على الصمت.

15ـ صناعة الكلام.

16ـ مدح التجارة وذم عمل السلطان.

17ـ الشارب والمشروب.

18ـ استحقاق الأمانة.

19ـ مقالة الزيدية والرافضة.

قلت: وبعض هذه الرسائل كخلق القرآن حوت على نهج عقيدته الاعتزالية.

سادساً: كتاب الحيــوان:

يروى عن الجاحظ أنه ما أن فرغ من تأليف كتابه «الحيوان» حتى قـام وأهـداه إلى محمد بن عبد الملك ابن الزيات، فأعطاه خمسة آلاف دينار.

وهذا الكتاب ألفه في أواخر حياته، والكتاب كما هو بين لمن يقـرأه مـلي بالاسـتطرادات، والتي اعتدناها من الجاحظ نفسه، وهي الصنعة الجاحظية، لكنك لا تمل أبـداً فالجـاحظ سـلك هذا المسلك بـذكاء فقـد قـال ـ في الجـزء الخـامس مـن كتابـه الحيـوان: «فـان مللـت الكتـاب، واستثقلت القراءة، فأنت حينئذٍ أعذر، وما عندي لـك مـن الحيلـة إلاّ أن أصـوره لـك في أحسـن صورة، وأقلبك منه في الفنون المختلفة، فأجعلك لا تخرج من الاحتجـاج بـالقرآن الحكـيم إلاّ إلى الحديث المأثور، ولا تخرج من الحديث إلاّ إلى الشعر الصحيح، ولا تخـرج مـن الشـعر الصـحيح الظريف إلاّ إلى المثل السائر الواقع و لا تخرج من المثل السائر الواقع إلا إلى القـول في الفلسـفة والغرائب التي صححتها التجربة، وأبرزها الامتحان، وكشـف قناعهـا البرهـان، والأعاجيـب التـي للنفوس بها كلف كثير، وللعقول الصحيحة إليها نزاع شديد.

ولذلك كتبته لك، وسقته إليك، واحتسبت الأجر فيـك 0فـانظر فيـه نظـر المنصـف مـن الاكفياء والعلماء، أو نظر المسترشد من المتعلمين والأتباع، فإن وجدت الكتاب الـذي كتبتـه لـك يخالف ما وصفتُ فانقصني من نشاطك له على قدر ما نقصتك مما ينشطك إليه لقراءتـه، وإن أنت وجدتني ـ إذا صح عقلك وإنصافك ـ قد وفيتك بما ضمنت لك، فوجدت نشاطك بعد ذلـك مدخولاّ، وحدَّك مفلولاّ، فأعلم أنا لم نؤت إلا من فسولتك[1]. وفساد طبعك، ومن إيثارك لمـا أضرّ بك»[2].

(1) الفسولة: النذالة والحقارة.
(2) كتاب الحيوان للجاحظ (5 / 222).

ويبين لنا الجاحظ في هذا الكتاب ما فيه من تقصير لبلوغ الإرادة فيه فقال: «وقد صادف هذا الكتاب في حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه، أول ذلك: العلة الشديدة، والثانية: قلة الأعوان، والثالثة: طول الكتاب، والرابعة: أني لو تكلفت كتاباً في طوله وعدد ألفاظه ومعانيه ثم كان من كتب العرض والجوهر، والطفرة والتوليد، والمداخلة والغرائز، لكان أسهل واقصر أياماً، وأسرع فراغاً، لأني كنت لا أفرغ فيه إلى تلقط الأشعار وتتبع الأمثال، واستخراج الآي من القرآن، الحجج من الرواية مع تعرف هذه الأمور في الكتب وتباعد ما بين الإشكال.

فإن وجدت فيه خللاً من اضطراب لفظ ومن سوء تأليف أو من تقطيع نظام، ومن وقوع شيء في غير موضعه، فلا تنكر بعد أن صورت عندك حالي التي ابتدأت عليها كتابي، ولولا ما أرجو من عون الله على إتمامه، إذا كنت لم التمس به إلا إفهامك مواقع الحجج لله،وتصاريف تدبيره»(1).

قلت: ويدافع الجاحظ عن كتابه «الحيوان» في أكثر من موضع، لربما أنه علم بمن عاب عليه الكتاب في أجزاءه الأولى، لذلك نراه يدافع عنه حيث يقول: «لرأيت أن جملة الكتاب، وإن كُثر ورقه، أن ذلك ليس مما يمل ويعتد عليَّ فيه بالإطالة، لأنه وان كان كتاباً واحداً، فإنه كتب كثيرة، وكل مصحفٍ منها فهو أُمُ على حدةٍ، فإن أراد قراءة الجميع لم يطل عليه الباب الأول حتى يهجم على الثاني، ولا الثاني حتى يهجم على الثالث، فهو أبداً مستفيد ومستطرف، وبعضه يكون جماماً لبعضٍ، ولا يزال نشاطه زائداً.

ومتى خرج من آي القرآن صار إلى الأثر، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر، ثم يخرج من الخبر إلى شعر، ومن الشعر إلى نوادر ومن النوادر إلى حكم

(1) الحيوان (1 / 10).

عقلية، ومقاييس سداد، ثم لا يترك هذا الباب، ولعله أن يكون أثقل، والملاك إليه أسرع، حتى يفضي به إلى مزح وفكاهة، والى سخفٍ وخرافةٍ ولست أراه سخفاً إذا كنت إنما استعملت سيرة الحكماء وآداب العلماء ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام فخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكي عنهم، جعله مبسوطاً وزاد في الكلام، فأصوب العمل إتباع آثار العلماء، والاحتذاء على مثال القدماء، والأخذ بما عليه الجماعة»[1].

قلت: ومن يتصفح هذا الكتاب يجده قد حوى على كثير من الموضوعات ليس في أخبار الحيوان وأصنافه فحسب، بل في فنون شتى، من أشعار، وأخبار، ونوادر، وحكايات، طغت عليها الصنعة الجاحظية.

ذكر مما حواه كتاب الحيوان:

قلت: بدأ الجاحظ كتابه «الحيوان» **في الجزء الأول** على خطبة، ثم وضع قائمة لبعض مؤلفاته، والتي عُيبَ على الجاحظ فيها، ثم دفاعه عن كتابه الحيوان، ثم تطرق لموضوع تقسيم العالم، ثم أقسام الحيوان، وأقسام الطير، ثم أقسام البيان، ثم تطرق مرة أخرى للدفاع عن كتابه الحيوان، ومما حوى عليه الكتاب، وامتداحه بكلام بليغ للكتب، ثم أخذ يتكلم في موضوع الخط والقلم وضروب الخط، وراح أيضاً في موضوع تاريخ الشعر قبل الإسلام، وحداثة الشعر، وفضيلة الشعر وإنها مقصورة على العرب وحدهم.

ثم تطرق لموضوع ترجمة الكتب، والصفات الواجب توافرها في الترجمان قال: «أن الترجمان لا يؤدي أبداً ما قال الحكيم، على خصائص معانيه، وحقائق

(1) كتاب الحيوان للجاحظ (1 / 59).

مذاهبه، ودقائق إختصارته، وخفيات حدوده، ولا يقدرُ أن يوفيها حقوقها، ويؤدي الأمانة فيها، ويقوم بما يلزم الوكيل، ويجب على الجري، وكيف يقدر على أدائها وتسليم معانيها والإخبار عنها على حقها وصدقها، إلاَّ أن يكون في العلم بمعانيها، واستعمال تصاريف ألفاظها وتأويلاتِ مخارجها مثل مؤلف الكتاب وواضعه».

«ولابد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة، في وزن علمه، في نفس المعرفة، وينبغي أن يكون فيها سواء وغاية، ومتى وجدناه أيضاً قد تكلم بلسانين علمنا أنه قد أدخل الضيم عليها»(1) .

ثم تكلم الجاحظ في مفاسد الترجمة، ثم في ترغيب الكتب، ثم الشروط الواجب توافرها في الكاتب حيث قال: وينبغي لمن كتب كتاباً أن لا يكتبه إلا على أن الناس كلهم له أعداء، وكلهم عالم بالأمور، وكلهم متفرغ له، ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غفلاً، ولا يرضى بالرأي الفطير، فإن لابتداء الكتاب فتنة وعُجباً، فإذا سكنت الطبيعة، وهدأت الحركة، وتراجعت الأخلاط، وعادت النفس وافرة، أعاد النظر فيه، فتوقف عن فصوله توقف من يكون وزن طمعه في السلامة أنقص من وزن خوفه من العيب، ويتفهم معنى قول الشاعر:

إنَّ الحـدَيثَ تَغِـر القـومَ خَلوتـهُ ... حتـى يلـجَ بهِـمُ عِـيُّ وإكِثـارُ(2)

ثم تطرق لموضوعات شتى في أخبار الحيوان، وما جاء في ذلك من نوادر وأشعار.

---

(1) الحيوان (1 / 51).
(2) الحيوان (1 / 57).

كذلك في الجزء الثاني من الكتاب، والجزء الثالث.

أما الجزء الرابع، فقد حوى على موضوعات متفرقة من تلك الموضوعات التي ذكرها، بداء في أوله بذكر الذرة والنمل، ثم ذكر النمل في القرآن الكريم وأحاديث في النمل، وأشعار في النمل، ثم بعد ذلك تطرق لذكر القرود والخنزير وعلة تحريم أكل الخنزير، وورد أشعار في القرد والخنزير.

ثم تطرق لموضوع الحيات، وأعاجيب فيها، ثم ذكر نوادر وأحاديث تتعلق بالحيات.

وذكر أيضاً شعراً للراوية خلف الأحمر في الحيات، ثم تطرق لموضوع الصم من الحيوان وذكر منها الحيات، والنعام، وذكر أشعار قيلت في ذلك.

ثم تطرق لأحاديث الصوفية والنصارى وسياحة الرهبان، والقول في النيران وأقسامها، ونيران العرب في الجاهلية، ونيران المجوس والعجم، هذا ما كان في الجزء الرابع في كتاب الحيوان وأهم ما جاء فيه.

وفي الجزء الخامس: الكلام على النار، وجوهر النيران، ثم مباحث في اليبوسة والرطوبة والبرودة والحرارة. وتمازج الألوان وتبدلها، واختلاف النيران وما فيها من ألوان.

ثم ذكر زرادشت صاحب المجوس، ثم معارضة أهل المجوس والرد عليهم.

ثم ورد أشعاراً قيلت في البرد والجمد والحرَّ، وجملة من القول في الماء، وتعظيم شأن النار، ثم ذكر جمرات العرب، وهي عبس وضبة ونمير، يقال لكل

واحد فيها جمرة، ثم ورد أشعار متفرقة وأقوال وآيات حول الماء، وتطرق لموضوع حكمة الخالق تبارك وتعالى في بعض الحيوانات.

ثم بعد ذلك أخذ يدافع عن موضوعات كتابه الحيوان.

ثم أخذ في كلام مديح النصارى واليهود والمجوس، وما قيل في ذلك من أشعار، ثم باب من أراد أن يمدح فهجا.

ثم ذكر قصيدة للكميت في مدحه للنبي ﷺ.

ومعلقة الحارث بن حلزة، وأقوال وأشعار متنوعة.

ثم تطرق في الحديث عن رئيسه النّظام، وأنه أضيق الناس صدراً بالسرّ، ثم موضوع متعلق بذم الأماني، ثم القول في العصفور، وذكر أجناس الطير التي تألف دور الناس. وأجناس المخلوقات التي تعايش الناس، وأورد فضائل العصفور، ثم أورد أشعار في مشي بعض الحيوانات.

ثم القول في الفأر والعقارب وذكر ما قيل فيهما من الشعر، من ذلك أورد شعر لأبي الشمقمق في الفأر.

ثم ذكر التفاضل بين الماعز والغنم، وأورد أشعاراً في ذلك.

ثم القول في الضفادع، والقول في الجراد وطيب لحمه.

والقول في القطا وأشعار قيلت فيها.

وختم الجزء الخامس بأخبار ونوادر كعادته وشعر لأبي الأسود الدؤلي.

والجزء السادس: بين الخطوط ومرافقها ثم عرض بعد ذلك عرضاً مجمل لما أشتمل عليه كتابه الحيوان.

ثم تطرق بعد ذلك لعجائب بعض الحيوانات، والقول في الضب، والكلاب، ثم القول في الجن والعفاريت.

وأورد آيات قرآنية وأشعار في ذلك، وذكر ما للجن من أصناف، وما لهم من أشعار وأساطير وأخبار ونوادر.

ثم تطرق لموضوع الوضع في الشعر الجاهلي، ثم القول في الثعلب، والوبر والأرانب، والضبع، والقنفذ، وما جاء فيها من أشعار ونوادر، والقول في الفهد وما جاء فيه من أخبار وأشعار.

الجزء السابع: القول في إحساس أجناس الحيوان، ثم تطرق كعادته للدفاع عن كتابه الحيوان، والقول في الفيل وأعاجيب خلقه، وذكر مزاعم الهند في الفيل، ثم ذكر إعجاب الجاحظ في ـ إذن الفيل، ثم القول في الجاموس والتمساح، والقول في مآكل بعض الحيوانات، وذكر أشعار في الفيل، ثم ذكر ـ فيلة كسرى والقول في معايب الفيل.

ثم تطرق لموضوع الحياة الدينية، والاجتماعية في الجاهلية، وختم كتابه بشعر للمقوم الضبي.

قلت: من الملاحظ أنَّ الموضوعات التي ذكرها الجاحظ أنها ليست لذكر الحيوان بذاته، وإنما الكتاب شمل فنون شتى، أبدع الجاحظ في ذكرها، وإن كان في الكتاب من المآخذ لكننا في كل الأحوال نجد الفوائد والأشعار التي وضعه الجاحظ، مما قد يعفيه عن تلك المآخذ، وما أورد من الأخبار، والتي لولا الجاحظ وكتابه هذا، ما وجدتها في مؤلفات أخرى.والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

أخبار الجاحظ

مع الوزير ابن الزيات، والقاضي بن أبي داود، وابنه، والفتح بن خاقان، وأبي الفرج بن نجاح، وابن المدبر:

قلت: ما إن ألف الجاحظ كتابه «الحيوان» وفرغ منه، قدمه للوزير محمد بـن عبـد الملك بن الزيات، فأعطاه خمسة آلاف دينار، وكان محمد هذا محباً للعلم والأدب والشـعر، فأصبح الجاحظ ملازماً له حظياً عنده.

وكان الجاحظ نائياً عن ابن أبي داود، وذلك لعداوة بين ابن الزيات وابن أبي داود.

رسالة للجاحظ لابن الزيات:

وللجاحظ رسالة وجهها لابن الزيات قال فيها: «لا والـلـه، عالج الناس داءً قط أدوى من الغيظ، ولا رأيتُ شيئاً هو أنفذ من شماتة الأعداءِ، ولا أعلم باباً أجمـع لخصـال المكـروه من الذل، ولكن المظلوم مادام يجد من يرجوه، والمبتلى ما دام يجد من يرثي لـه، فهـو عـلى سبب دركٍ وإن تطاولت به الأيام، فكم من كربةٍ فادحةٍ، وضيقةٍ مصمتةٍ قد فتحـت أقفالهـا وفككت أغلالها، ومهما قصرتُ فيـه فلـم أقصر في المعرفـة بفضـلك، وفي حسـن النيـة بينـي وبينك، لا مشتت الهوى، ولا مقسم الأمل عـلى تقصـير قـد احتملتـه، وتفـريطٍ قـد اغترفتـه، ولعل ذلك أن يكون من ديون الإدلال وجرائم الإغفال، ومهما كان من ذلك فلـن أجمـع بـين

الإساءة والإنكار، وإن كنت كما تصف من التقصير، وكما تعرف من التفريط، فإني من شاكري أهل هذا الزمان، وحُسنُ الحال متوسطٌ المذهب، وأنا أحمد اللـه على أن كانت مرتبتك من المنعمين فوق مرتبتي في الشاكرين، وقد كانت عليَّ بك نعمةٌ أذاقتني طعم العز، وعودتني روح الكفاية، ولوت هذا الدّهرَ وجَهَدُه، ولما مسخ اللـه الإنسَانَ قرداً وخنزيراً، ترك فيهما مشابةَ من الإنسان، ولما مسخ زماننا، لم يترك فيه مشابة من الأزمان»[1].

ذكر ما وقع بين الجاحظ وابن الزيات:

قال الجاحظ: تشاغلتُ مع الحسن بن وهب أخي سليمان بن وهب بشرب النبيذ أياماً، فطلبني محمد بن عبد الملك ـ ابن الزيات ـ لمؤانسته، فأُخبر باتصال شغلي مع الحسن بن وهب، فتنكر لي، وتلون عليَّ، فكتبت إليه رقعة فيها: «أعاذك اللـه من سؤ الغضب، وعصمك من سرَفَ الهوى، وصرف ما أعارك من القوة إلى حبَّ الإنصاف، ورجح في قلبك إيثار الأناة فقد خِفتُ ـ أيدك اللـه ـ أن أكون عندك من المنسوبين إلى نزق[2] السفهاء، ومجانبة سبل الحكماء، وبعد:

فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت:

وَإِن امْـرَأً أَمْسَى وَأَصْبَح سَالِمًا ... مِنْ النَّاسِ إلاَّ مَا جَنىَ لسَعَيدُ

وقال الآخر:

وَمنْ دَعَا النَّاس إلَى ذَمهِ ... ذَمُوهُ بالْحَق وَبالَباطلِ

(1) معجم الأدباء لياقوت الحموي (16 / 77).
(2) النزق: الخفة والطيش.

فإنَّ كنتُ اجترأت عليك ـ أصلحك الله ـ فلم أجترئ إلاَّ لأن دوام تغافلك عني شبيه بالإهمال، الذي يورث الإغفال، والعفو المتتابع يؤمن من المكافأة، ولذلك قال عينية بن حصن بن حذيفة لعثمان ـ رضي الله عنه ـ : عمر كان خيراً لي منك، أرهبني فاتقاني، وأعطاني فأغناني، فإن كنت لا تهَبُ عقابي ـ أيدك الله لخدمةٍ فهبه لأياديك عندي، فإن النعمة تشفع في النقمة، ولا تفعل لذلك فعد إلى حُسن العَادةِ، وإلاَّ فأفعل ذلك لحُسن الأحدوثة، و إلاَّ فأتِ ما أنت أهله من العفو دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة، فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمد، وتتجافى عن عقاب المصر، حتى إذا صرت إلى من هفوته ذكر، وذنبه نسيان، ومن لا يعرف الشكر إلا لك، والإنعام إلا منك هجمت عليه بالعقوبة، وأعلم ـ أيدك الله ـ أن شين غضبك عليَّ كزين صفحك عني، وأن موت ذكري مع انقطاع سببي منك كحياة ذكرك مع اتصال سببي بك، وأعلم أن لك فطنة عليم، وغفلة كريم والسلام»[1].

وقال الجاحظ في ابن الزيات شعر قال فيه:

بدا حين أثرى لإخوانه ... ففلل منهم شباة العدم

وأبصر كيف انتقال الزمان ... فبادر بالعرف قبل الندم[2]

خبر الجاحظ وابن الزيات على مائدة طعام:

قال الجاحظ: كنت يوماً على مائدة محمد بن عبد الملك، فقدمت فالوذجة، فأومأ بأن يجعل مارق منها على الجام مما يليني تولعاً بي، فتناولته، وظهر بياض

(1) زهرا الآداب وثمر الألباب (203/2)
(2) زهرا الآداب وثمر الألباب (2 / 232).

إلجام بين يدي، قال:يا أبا عثمان، قد تقشعت سماؤك قبل سماء غيرك، فقلت: أصلحك الله، لان غيمها كان رقيقاً[1].

رسالة في الجد والهزل موجة إلى ابن الزيات:

وهذه رسالة بديعة بليغة، كتبها الجاحظ، ووجهها إلى محمد بن عبد الملك ابن الزيات، وسبب ذلك أن ابن الزيات عاب على الجاحظ رسالته في «الزرع و النخل» وكان قد قدمها إلى إبراهيم بن العباس الصولي فمنحه خمسة آلاف دينار، وهذه الرسالة على طولها، فإنها لا تمل من يقرأها، قال فيها الجاحظ: «جعلت فداك، ليس من أجل اختياري النخل على الزرع أقصيتني، ولا على ميل إلى الصَّدقة دون إعطائي الخراج، عاقبتني ولا لبغضي دفع الإتاوة والرضا بالجزية حرمتني. ولست أدري لم كرهت قربي وهويت بعدي واستثقلت روحي ونفسي، واستطلت عمري وأيام مقامي. ولم سيرتك سيئتي ومصيبتي وساءتك حسنتي وسلامتي، حتى ساءك تجملي بقدر ما سرَّك جزعي وتضجري، وحتى تمنيتُ أن أخطئ عليك فتجعل خطئ حجة لك في إبعادي، وكرهت صوابي فيك خوفاً من أن تجعله ذريعةً لك إلى تقريبي فإن كان ذلك هو الذي أغضبك، وكان هو السبب لموجدتك فليس ـ جُعلت فداك هذا الحقد في طبقة هذا الذنب، ولا هذه المطالبة من شكل هذه الجريمة. ولو كان إذ لم يكن في وزنه وقع قريباً، وإذ لم يكن عدله وقع مشبهاً كان أهون في موضع الضرر وأسهل في مخرج السَّماع. فأيُّ شيءٍ بقيت للعدو المكاشف والمنافق الملاطف، وللمعتمد المصَّر وللقادر المدلّ.وَمَنْ عاقب على الصغير بعقوبة الكبير، وعلى الهفوة بعقوبة الإصرار، وعلى الخطأ

(1) خاص الخاص للثعالبي ص 58.

بعقوبة العمد، وعلى معصية المستتر بعقوبة معصية المعلن، ومن لم يفرق بين الأعالي والأسافل، وبين الأقاصي والأداني، عاقب على الزنى، بعقوبة السّرق، وعلى القتل، بعقوبة القذف. ومَنْ خرج إلى ذلك في باب العقاب خرج إلى مثله في باب الثواب. ومن خرج الأوزان وخالف جميع التعديل، كان بغاية العقاب أحقَّ، وبه أولى. والدليل على شدة غيظك وغليان صدرك قوة حركتك وإبطاء فترتك، وبعد الغاية في احتيالك، ومن البرهان على ثبات الغضب، وعلى كظم الذنب تمكن الحقد ورسوخ الغيظ، وبعد الوثبة وشدة الصولة. وهذا البرهان صحيح ما صحّ النظم و وقام التعديل واستوت الأسباب، ولا أعلم ناراً أبلغ في إحراق أهلها من نار الغيظ، ولا حركة أنقص لقوة الأبدان من طلب الطوائل مع قلة الهدوء، والجهل بمنافع الجمام، وإعطاء الحالات أقسامها من التدبير. ولا أعلم تجارة أكثر خسراناً ولا أخف ميزاناً من عداوة العاقل العالم، وإطلاق لسان الجليس المداخل، والشعار دون الدثار والخاص دون العام. والطالب ـ جعلت فداك ـ يعرض ظَفَرٍ ما لم يخرج المطلوب، وإليه الخيار ما لم تقع المنازلة، ومن الحزم إلاَّ تخرج إلى العدو إلا ومعك من القوى ما يغمر النضلة، التي ينتجها له الإخراج، ولا بد أيضا من حزم يحذرك مصارع البغي، ويخوفك ناصر المطلوب.

وبعد ـ أبقاك الله ـ فأنت على يقين من موضع ألم الغيظ من نفسك والغيظ عذاب، ولربما زاد التشفي في الغيظ ولم ينقص منه، ولست على يقين من نفوذ سهمك في صيدك، كما أيقنتُ بموضع الغيظ من صدرك، والحازم لا يلتمس شفاء غيظه باجتلاب ضعفه ولا يطفئ نار غضبه تأخر عقوبة من أغضبه ولا يسدد سهمه إلاَّ والغرض ممكن، والغاية قريبة ولا يهرب إلاَّ والمهرب معجزة.

إن سلطان الغيظ غشوم، وان حكم الغضب جائر، واضعف ما يكون العزم عن التصرف أضعف ما يكون الحزم. والغضب في طباع شيطان، والهوى يتصور في صورة امرأة، فلا يبصر مساقط العيب ومواقع الشرف إلا كل معتدل الطباع ومعتدل الأخلاط مستوي الأسباب. والله لقد كنت اكره لك سرف الرضا مخافة جواذبه إلاّ سرف الهوى. فما ظنك بسرف الغضب، وبغلبة الغيظ، ولا سيما ممن قد تعود إهمال النفس ولم يعودها الصبر، ولم يعرفها موضع الحظ في تجرح مرارة العفو، وأنَّ المراد من الأمور عواقبها لا عوا جلها. وقد كننت أشفق عليك من إفراط السرور فما ظنك بإفراط الغيظ، وقد قال بعض الناس: لا خير في طول الراحة وإذا كان يورث الغفلة، ولا الكفاية وإذا كان يؤدي إلى المعجزة، ولا في كثرة الغنى إذا كان يُخرج إلى البلدة.

جُعلت فداك، وان داء الحزن وان كان قاتلاً فإنه داء مماطل، وسقمه سقم مُطاول، ومعه من التمهل بقدر قسطه من إناة المرَّةِ السوداء وداء الغيظ سفيه طياش، وعجول فحاش، يُعجل عن التوبة، ويقطع دون الوصية، وقعه من الخرق بقدر قسطه من التهاب المرَّةِ الحمراء، والعجول يخطئ وإن ظفر فكيف به إذا أخفق، على إن إخفاقه يزيد في حقيقة خطئه كما أن ظفره لا ينتقص من مقدار زلله. وأنت روح كما أنت وحشيّ من قرنك إلى قدمك. وعمل الآفة في الّدقاق والعتاق أسرع، وحدها عن الغلاظ الجفاة أكل، فلذلك أشتد جزعي لك من سلطان الغيظ وغلبته»[1].

(1) رسالة في الجد والهزل للجاحظ ص 232.

قلت: هذه الرسالة نظير نص مقدمة كتابه الحيوان والذي إهداءه لابن الزيات، وقد تبين من ذلك أن ابن الزيات لم يعيب كتاب «الزرع والنخل» وإنما عاب على الجاحظ أكثر من كتاب، وقد ذكر ذلك الجاحظ في مقدمة كتابه «الحيوان».

ذكر مقتل ابن الزيات والقبض على الجاحظ:

قلت: كان الجاحظ كما علمنا نديماً لابن الزيات فلما قتل ابن الزيات، قبض على الجاحظ وبعث به إلى القاضي أحمد بن داود.

قال أبو عبد اللـه المزباني، حدث إسحاق الموصلي وأبو العيناء، قال: كنت عند أحمد بن أبي داود بعد قتل ابن الزيات فجيء بالجاحظ مقيداً، وكان من أصحاب ابن الزيات وفي ناحيته، فلما نظر إليه قال: واللـه ما علمتك إلا متناسياً للنعمة، كفوراً للصنيعة و معداً للمساوئ وما فتني باستصلاحي لك، ولكن الأيام لا تصلح منك لفساد طويتك، ورداءة داخلتك وسوء اختيارك، وتغالب طبعك، فقال له الجاحظ: خفض عليك ـ أيدك اللـه ـ فواللـه لأن يكون لك الأمر على خير من أن يكون لي عليك، ولأن أُسيء وتحسن، أحسن عنك من أن أحسن فتسيء، وأن تعفو عني في حال قدرتك أجمل من الانتقام مني.

فقال له ابن أبي داود: قبحك اللـه، وما علمتك إلاَّ كثير تزويق الكلام، وقد جعلت ثيابك أمام قلبك، ثم اصطفيت فيه النفاق والكفر، ما تأويل هذه الآية: ﴿**وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد**﴾ [هود: 102].

قال: تلاوتها تأويلها ـ أعز اللـه القاضي.

فقال: جيئوا بحداد.

فقال: أعز اللـه القاضي ـ ليفك عني أو ليزيدني؟.

فقال: بل ليفك عنك. فجيء بالحداد فغمزه بعض أهل المجلس أن يَعنفُ بساق الجاحظ، ويطيل أمره قليلاً، فلطمه الجاحظ وقال: أعمَلَ عمَلَ شهرٍ في يوم، وعمل يوم في ساعة، وعمل ساعة في لحظة، فإنَّ الضرر على ساقي، وليس بجزع ولا ساجة[1] فضحك بن أبي داود وأهل المجلس منه. وقال ابن أبي داود لمحمد بن منصور، وكان حاضراً: أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه.

ذكر إكرام بن أبي داود الجاحظ:

ثم قال يا غلام: صر به إلى الحمام وأمط عنه الأذى، و وأحمل إليه تخت ثياب طويلة، وخفاً، فلبس ذلك ثم أتاه فتصدر في مجلسه ثم أقبل عليه وقال: هات الآن حديثك يا أبا عثمان[2].

قلت: والقاضي ابن أبي داود هو من المعتزلة، ورأس فتنة القول بخَلق القرآن، أتصل في أول أمره بالمأمون، ثم قاضي المعتصم ثم الواثق، وتوفي في أول خلافة المتوكل سنة أربعين ومائتين.

وكان لإكرامه الجاحظ فلأن مذهبهما واحد لا خلاف فيه، ولذلك قربه، ثم أن الجاحظ اهدأ له كتابه المشهور «البيان والتبيين» فمنحه ابن أبي داود خمسة آلاف دينار.

وفي رواية أخرى، ذكرها القاضي أبوعليّ التنوخي في كتابه: «الفرج بعد الشدة» قال: وجدت في بعض الكتب: أن الجاحظ أنفذ إلى أحمد أبن داود بعد نكبة محمد بن عبد الملك الزيات مقيداً في قميص رث فأوقف بين يديه ليأمر

(1) الساج: هو الخشب، والساجة: الخشبة المنحوتة.
(2) معجم الأدباء لياقوت الحموي (16/ 79).

بأمره فقال له ابن أبي داود: والـلـه يا عمرو ما عملتـك إلا سـباباً للنعمـة، جاحـداً للصـنيعة، معدداً للمثالب، مخفياً للمناقب وإن الأيام لا تصلح مثلك. لفساد طويتـك، وسـوء اختيـارك. قال الجاحظ:خفض عليك، فو الـلـه لأن تكون المنة لك خير في إن تكون لي عليك، ولأن أسيء وتحسن أحسن في الأحدوثة عنك، ولأن تعفو في حال قدرتك أجمل بك من إن تنتقم. فقـال لي ابن داود: ما علمتك إلاَّ كثير رونق اللسان، قد جعلت ثيابك أمام قلبك، ثم اصطفيت فيه النفاق، أعزب قبحك الـلـه، فأنُهض في قيوده ثم قال: يا غلام: القه وخذ قيـوده وصر بـه إلى الحمام، وأحمل إليه خُلعة يلبسها، وأحمله إلى منزل يأوي به بفـرش وفـراش وآلـة وقـماش، ويزاح فيه علـله، وادفع إليه عشرة آلاف درهم لنفقته إلى أن يصح من علتـه، ففعـل ذلـك، فلما كان من الغد رؤى الجاحظ متصدراً في مجلس ابـن أبي داود، وعليـه خُلعـة مـن ثيابـه، وطويلة من قلاسنة، وهو مقبل عليه بوجهه يقول: هات يا أبا عثمان[1].

قول الجاحظ حين عوتب في عدم نصرة نديمه ابن الزيات:

وقيل للجاحظ: لِمَ خذلت ابن الزيات، وهربت منه لما أصابته المحنة؟ فقال: خفـت أن يقال: ثاني أثنين إذ هما في التنور! وذلك أن ابن الزيات عوقب في تنـور مـن حديـد حتـى مات[2].

وفي روايـــة أخـــرى: قـــال المرزبـــاني: وكـــان الجـــاحظ ملازمـــاً لمحمـــد بـــن عبـــد الملـك خاصـاً بـه، وكـان منحرفـاً عـن أحمـد بـن أبي داود، للعـداوة بـين أحمـد ومحمـد،

(1) الفرج بعد الشدة لأبي عليٍّ التنوخي (1 / 82 – 83).
(2) محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني (565/1).

ولما قبض على محمد هرب الجاحظ فقيل له: لِمَ هربت؟ فقال: خفت أن أكون ثاني أثنين إذ هما في التنور، يريد ما صُنعَ بمحمدٍ، وإدخَالهِ تنور حديدٍ فيه مسامير، كان هو صنعه ليعذب الناس فيه، فعُذب هو فيه حتى مات، يعني محمد بن الزيات[1].

شعر للجاحظ في ابن أبي داود:

قال ياقوت الحموي رحمه الله تعالى في «معجم الأدباء»: ومن شعر الجاحظ في ابن أبي داود:

وعـــويصٍ مـــن الأمـــور بهيـــم ... غَـــامضُ الشَّـــخصِ مُظلـــمُ مستـــورُ
قـــد تَسَّـــنمتَ مَـــا تـــوَعرَ مِنـــهُ ... بلســـــانٍ يَزينـــــهُ التحبيَـــــرُ
مثـــلَ وشيِ الـــبُرود هِللـــةُ النسَّـــجُ ... وَعنَـــــد الحِجَـــــاجُ دُرُ نَثيـــــرُ
حَســـنُ الصّـــمتَ والمِقـــاطَع إمَّـــا ... نَصـــتَ القَـــومُ والحِـــديثُ يَـــدوُر
ثـــم مِـــنْ بعـــدِ لحظـــةٍ تـــورث اليُســـر ... وعِـــــرضُ مُهـــــذبُ موفَـــــورُ

وكتب الجاحظ إلى أحمد بن أبي داود:

لاَ تـــرَاني وإِن تطاوَلـــتُ عمَـــداً ... بـــيَنَ صـــفيُهم وأنـــتَ تسَـــيرُ
كُلهَـــم فَاضِـــلُ عـــليَّ بَمـــالٍ ... ولســـــاني يزينُـــــه التَحبـــــيُر
فـــإذا ضَـــمَّنا الحَـــديثُ وَبيـــتُ ... وكـــأني عـــلى الجمَيـــعِ أمَـــيرُ
رُبَّ خصـــمٍ أرَق مِـــن كَـــلَّ رُوح ... ولفـــرطِ الـــذَّكاءِ يَكـــادُ يَطـــيرُ

(1)معجم الأدباء لياقوت الحموي (16 / 76).

فَــــإذا رَامَ غَــــايتي فَهُــــو كــــابٍ وعَــــلى البُعــــدِ كَوكَــــبُ مبَهــــورُ[1]

وحَدث أبو العيناء عن إبراهيم بن رباحٍ، قال: أتاني جماعة من الشعراء، كل واحدٍ منهم يَدعِى أنه مدحني بهذه الأبيات وأجزيه عليها:

بَــــدا حَــــينِ أثــــرى بإخوانــــهِ فَفلــــلَ عَــــنهم شــــباهَ العَــــدمَ

وذكَــــرهُ الــــدَهرُ صَرفُ الزَمــــانِ فبَــــادِرَ قَبــــل انِتقــــالَ الــــنّعمَ

فتــــىً خَصّــــهُ اللــــه بالمكُرمَــــاتِ فــــمَازجَ مِنــــهُ الحَيــــاءَ بــــالكَرَمَ

ولاَ ينَكــــثُ الأرَضِ عَنــــد السُــــؤالِ لَيقطــــعُ زُوَارهُ عَــــن نَعــــمَ

ويقال: أن الجاحظ مدح بهذه الأبيات أحمد بن أبي داود، وإبراهيم بن رباح، ومحمد بن الجهم[2].

قلت: وللجاحظ رسالة عنوانها «المعاش والمعاد، أو الأخلاق المحمودة والمذمومة» أخُتلفَ فِيمن وجهها الجاحظ، قيل لابن الزيات، وقيل لابن أبي داود.

ورجح العلامة الكبير والمحقق الخبير«عبد السلام محمد هارون» رحمه الله تعالى في تحقيقه «رسائل الجاحظ» بأن الرسالة السالفة الذكر هي موجه إلى أبو الوليد محمد بن أحمد بن داود، وهو قاضياً كأبيه أحمد.

قال: «والراجح أن الرسالة كتبها الجاحظ إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي داود، لا إلى محمد بن عبد الملك، لأنه يذكر في صدرها أنه عرف المكتوب إليه هذه

(1) معجم الأدباء لياقوت الحموي (16 / 81).
(2) معجم الأدباء لياقوت الحموي (16 / 81).

الرسالة أيام الحداثة ولا ينطبق ذلك على محمد بن عبد الملك الزيات فقد كانت حياته بين سنتي 173 و 233 ولم تُعرف صلة الجاحظ به إلاَّ في أيام سلطانه»[1]

قال الجاحظ في مقدمة رسالته هذه: «حفظك الله وأمتع بك، أما بعد، فإن جماعات أهل الحكمة، قالوا: واجب على كل حكيمٍ أن يُحسن الارتياد لموضع البُغية، وأن يبين أسباب الأمور ويمهد لعواقبها، فإنما حمُدتِ العَلماء بُحسن التثبت في أوائل الأمور، واستشفافهم بعقولهم، ما تجيء به العواقب، فيعلمون عند استقبالها ما تؤول به الحالات في استدبارها، وبقدر تفاوتهم في ذلك تستبين فضائلهم. فأما معرفة الأمور عند تكشفها وما يظهر من خفياتها، فذاك أمر يعتدل فيه الفاضل والمفضول، والعالمون والجاهلون. وإني عرفتك ـ أكرمك الله ـ في أيام الحداثة، وحيثُ سلطان اللهو المخلق للأعراض أغلب على نظرائك، وُسكر الشباب، والجدة المتحيفين للدين والمروة مستول على لذاتك فاختبرت أنت وهم ففقتهم ببسطة المقدرة وحميا الحداثة، وطول الجدة، مع ما تقدمتهم فيه من الوسامة في الصورة، والجمال في الهيئة، وهذه كلها أسباب تكاد أن توجب الانقياد للهوى، ولجُجُ من المهالك لا يسَلمُ منها إلا المنقطع القرين في صحة الفطرة، وكمال العقل. فاستعبدتهم الشهوات حتى أعطوها أزمة أدياتهم، وسلطوها على مروءاتهم، وأباحوها أعراضهم، فألت بأكثرهم الحال إلى ذُلَّ العدم وفقد عز الغنى في العاجل، والندامة الطويلة والحسرة في الآجل. وخرجت نسيج وحدك، أوحدياً في عصرك، حكمت وكيل الله عندك ـ وهو عقلك ـ على هواك، وألقيت إليه أزمة أمرك، فسلك بك طريق السلامة،

(1) رسائل الجاحظ (1 / 91).

وأسلمك إلى العافية المحمودة، وبلغ بك من نيل اللذات النعم، أكثر مما بلغوا، ونال بك من الشهوات أكثر مما نالوا، وصرفك من صنوف النعم، أكثر مما تصرفوا، وربط عليك من نعم الله التي خولك ما أطلقه من أيديهم إيثار اللهو وتسليطهم الهوى على أنفسهم، فخاض بهم سبل تلك اللجج، واستنقذك من تلك المعاطب، فأخرجك سليم الدين، وافر المروءة نقي العرض، كثير الثراء، بين الجدة وذلك سبيل من كان ميله إلى الله تعالى أكثر من ميله إلى هواه. فلم أزل أبقاك الله في أحوالك تلك كلها بفضيلتك عارفاً، ولك بنعم الله عندك غابطاً، أرى ظواهر أمورك المحمودة فتدعوني إلى الإنقطاع إليك، وأسأل عن بواطن أحوالك فتزيدني رغبةً في الاتصال بك ارتياداً مني لموضع الخيرة في الأخوة، والتماسًا لإصابة الاصطفاء في المودة، وتخيراً لمستودع الرجاء في النائبة»[1].

ومما جاء أيضاً في مقدمة رسالته قوله: «فلما وجبت عليَّ الحجة بشكرك، وقطع عذري في مكافأتك، اعترفت بالتقصير عن تقصي ذلك، إلاَّ إني بسطتُ لساني بتقريظك، ونشر محاسنك موصول ذلك في السامعين بالاعتراف بالعجز عن إحصائها»[2].

ومما جاء في مقدمة رسالته قوله: «ثم رأيت أن قد بقي عليّ أمر من الأمور يمكنني فيه برك، وهو عندي عتيد، وأنت عنه غير مستغن، والمنفعة لك فيه عظيمة عاجلة وآجلة إن شاء الله.

ولم أزل ـ أبقاك الله ـ بالموضع الذي قد عرفت، من جمع الكتب ودراستها والنظر فيها، ومعلوم أن طول دراستها إنما هو تصفح عقول العالمين وكتب أهل

(1) رسائل الجاحظ (1 / 91 – 93).
(2) رسائل الجاحظ (1 / 95).

الملل، فرأيت أن أجمع لك كتاباً من الأدب، جامعاً لعلم كثير من، المعاد والمعاش، أصف لك فيه علل الأشياء، وأخبرك بأسبابها، وما اتفقت عليه محاسن الأمم.

وعلمت أنّ ذلك من أعظم ما أَبَرُكَ به، وأرجح ما أتقرب به إليك، وكان الذي حداني على ذلك ما رأيت الله قسم لك من الفهم والعقل، وركب فيك من الطبع الكريم»[1].

كذلك كتب الجاحظ رسالته: «نفي التشبيه» إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي داود، **فقال في مقدمة هذه الرسالة:** «أطال الله بقاءك وحفظك، وأتم نعمته عليك، وكرامته لك، قد عرفت ـ أكرمك الله ـ ما كان الناس فيه من القول بالتشبيه، والتعاون عليه والمعاداة فيه، وما كان في ذلك من الإثم الكبير، والفرية الفاحشة، وما كان لأهله من الجماعات الكثيرة، والقوة الظاهرة، والسلطان المكين، مع تقليد العوام، وميل السفلة والطغام»[2].

قلت: وقبل ذلك كان الجاحظ قد بعث ببعض رسائله إلى القاضي أحمد بن أبي داود، كرسالة «الفتيا» وذلك أن الجاحظ يحب من هؤلاء أن يحظى بالتقدير لديهم، وهذا دأبه حتى مع وزير المتوكل، الفتح بن خاقان، وسوف نوضح ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

وعلى كل حال قد حظي الجاحظ عند أحمد بن أبي داود، ثم من بعده ابنه محمد.

(1) رسائل الجاحظ (1 / 95 - 96).
(2) رسائل الجاحظ (1 / 283).

ذكر الجاحظ والفتح بن خاقان:

قلت: والفتح بن خاقان وزير المتوكل وكانا قد قتلا بعد سنة سبع وأربعين ومائتين، والجاحظ حظي بتقدير كبير لدى الوزير الفتح بن خاقان، وللجاحظ رسالة بديعة كتبها ثم وجهها للفتح، وعنوان الرسالة «مناقب الترك» قال الجاحظ في مقدمته: «وفقك الله لرشدك، وأعان على شكرك، وأصلحك وأصلح على يديك، وجعلنا وإياك ممن يقول بالحق ويعمل به، ويؤثره ويحتمل ما فيه مما قد يصد عنه، ولا يكون حظه منه الوصف له، والمعرفة به، دون الحث عليه، والانقطاع إليه، وكشف القناع فيه وإيصاله إلى أهله، والصبر على المحافظة في أن لا يصل إلى غيرهم، والتثبت في تحقيقه لديهم، فإن الله تعالى لم يعلم الناس ليكونوا عالمين دون أن يكونوا عاملين، وإنما علمهم ليعملوا وبين لهم ليتقوا التورط في وسط الخوف، والوقوع في المضار، والتوسط في المهالك، فلذلك طلب الناس التبين، ولحب السلامة من الهلكة، والرغبة في المنفعة احتملوا ثقل التعلم، وتعجلوا مكروه ثقل المعاناة، ولقلة العاملين وكثرة الواصفين، قال الأولون: العارفون أكثر من الواصفين، والواصفون أكثر من العاملين»[1].

رسالة من الفتح بن خاقان إلى الجاحظ:

قلت: أعجب الفتح بالجاحظ إعجاباً شديداً، ولذلك أدناه وقربه وأكرمه وكان الفتح بن خاقان قد كتب كتاباً للجاحظ قال فيه: «إن أمير المؤمنين يجَدِ بِكَ، ويهش عند ذكرك، ولولا عظمتك، في نفسه لعلمِكَ ومَعرفتك، لحال بينك وبين بعدك عن مجلسه و ولغصبك رأيك وتدبيرك فيما أنت مشغول به، ومتوفر

---

(1) رسائل الجاحظ (163/3).

عليه، وقد كان ألقى إليّ من هذا عنوانه فزدتك في نفسه زيادة كف بها عن تجشيمك فاعرف لي هذه الحال، واعتقد هذه المنة على كتاب الرد على النصارى، وأفرغ منه وعجل به إليَّ، وكن من جدا به على نفسه، تنال مشاهرتك وقد استطلقته لما فضى واستستُ لك لسنة كاملةٍ مستقبلةٍ، وهذا مما لم تحتكم به نفسك، وقد قرأتُ رسالتك في بصيرة غنامٍ، ولولا إني أزيد في مخيلتك لعرفتك ما يعتريني عند قراءتها، والسلام»[1].

قلت: يفهم من رسالة الفتح بن خاقان أنه يطلب من الجاحظ كتابة «الرد على النصارى» وقد فعل الجاحظ ذلك، وقدمها إلى الفتح، ونال جائزته.

قال في أول هذه الرسالة: «الحمد لله الذي من علينا بتوحيده، وجعلنا مما ينبغي شبهة خلقه وسياسة عباده، وجعلنا لا نفرق بين أحد من رسله، ولا نجحد كتاباً اوجب علينا الإقرار به، ولا نضيف إليه ما ليس منه، إنه حميد مجيد، فعال لما يريد، أما بعد، فقد قرأت كتابكم، وفهمت ما ذكرتم فيه، من مسائل النصارى قبلكم، وما دخل على قلوب أحداثكم وضعفائكم من اللبس، والذي ختموه على جواباتهم من العجز، وما سألتم من إقرارهم بالمسائل، ومن حسن معونتهم بالجواب»[2].

قلت: فلما علم المتوكل ما لدى الجاحظ من العلم في فنون كثيرة، طلبه، وكان الجاحظ في أخريات حياته، وكان قد أصابته علة أقعدته على الفراش لمدة طويلة قبل أن يرحل عن الدنيا، سنذكر ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

---

(1) معجم الأدباء (16 /99).
(2) رسائل الجاحظ (2 /203).

أخبار الجاحظ في ديوان الرسائل:

قال أبو دلف الكاتب قال: صدر الجاحظ في ديوان الرسائل أيام المأمون ثلاثة أيام ثم إنه استعفى فأعفي.

قلت: إن الجاحظ بعلمه ومطالعته للكتب لساعات طوال، جعله يمل من هذا العمل في ديوان إنشاء الرسائل، وهذا بلا ريب يشكل عليه الضيق والضجر، وهكذا يكون العالم البصير الماهر في النظر والباحث النحرير كالجاحظ.

مع ذلك لو بقي الجاحظ لفترة أطول لكاد يكون أفضل كتَّاب الدّيوان، وأفلَ نجمُ الكُتّاب العاملين في الدَّيوان، قال سهل بن هارون: إن ثبت الجاحظ في هذا الدَّيوان، أفل نجم الكتَّاب[1].

قلت: فالجاحظ مشهور بالبيان والبلاغة، ويبدو أن الجاحظ كان يرأى أن وجوده ربما في الديوان يدعوا إلى الملل والكلل، ويبعده عن عشقه الذي لا ينضب، وهي مطالعة الكتب، والكتابة.

ومن الأخبار في هذا الباب:

حدث عبد الرحمن بن محمد الكاتب قال: كان الجاحظ يتقلد خلافة إبراهيم بن العباس الصولي، على ديوان الرسائل، فلما جاء إلى الديوان، جاءه أبو العيناء، فلما أراد الانصراف تقدم الجاحظ إلى حاجبه: إذا وصل إلى الدهليز ألا

(1) معجم الأدباء(79/16).

يدعه يخرج، ولا يمكنه من الرجوع إليه، فخرج أبو العيناء ففعل به ذلك، فنادى بأعلى صوته: يا أبا عثمان قد أريتنا قدرتك فأرنا عفوك[1].

قلت: وللجاحظ مع أبو العيناء هذا أخبار سنذكرها في موضعه إن شاء الله تعالى.

خبر الجاحظ وأبي الفرج بن نجاح:

كما أن للجاحظ كان له حظوة عند أولئك الذين ذكرناهم سالفاً، وما كان من علاقته بهم، فإن لأبي الفرج بن نجاح نصيب من ذلك.

وأبي الفرج هو محمد بن نجاح بن سلمه، وكان أبوه نجاح على ديوان التوقيع في خلافة المتوكل، وقلته سنة خمس وأربعين ومائتين.

والرسالة التي وضعها الجاحظ هي عبارة عن جمع الأسماء، من كنيته أبو عثمان، وفيها قصيدة هي للجاحظ نفسه، جاء في أول هذه الرسالة: «جُعلت فداك، وأطال الله بقاك، وأعزك وأكرمك، وأتم نعمته عليك وأيدك، قد نسخت لك ـ أعزك الله ـ في صدر هذا الكتاب قصيدةً قيلت في أبي الفرج أدام الله عزه، ذكروا أن قائلها رجل يكنى أبا عثمان، ولا أدري، أهو أبو عثمان هشام بن المغيرة، أم أبو عثمان عفان بن أبي العاص»[2].

ثم ختم رسالته هذه بقصيدة مكونة من ثمان وعشرين بيتاً، وهذه القصيدة كما قال عنها ياقوت رحمه الله تعالى: وقال الجاحظ في أبي الفرج نجاح بن سلمة،

(1) معجم الأدباء لياقوت الحموي (16 / 84).
(2) رسائل الجاحظ (1/ 326).

يسأله إطلاق رزقه من قصيدة[1]، ثم ذكر ياقوت القصيدة، ولكن ليست كلها. ونحن نـذكرها كاملةً إن شاء اللـه تعالى.

أقَـــامَ بـــــدارِ الخفـــــض راضٍ بحظـــهِ ... وَذوُ الحِــرص يسَري حِــينَ لا أحَــدُ يسَــــري

يظـــنُ الرَضــا بالقسَــم شــيئاً مهَّونـــاً ... وَدُونَ الرضَــا كــأسُ أمَــرُ مَــنْ الصَّبـــرِ

جُزعِــتٌ فَلــم أعَتــبَ فلــو كُنــتُ ذاَحَجــاً ... لقنَعـــتُ نفَـــسي بالقَليـــل مَــنْ الـــوَفرِ

أظـــنٌّ غبـــيَّ القَـــومِ أرغَـــدَ عيشـــةً ... وأجَـــذلَ فيّ حَـــال اليَســـارة والعـــسرِ

تمــرَّ بـــه الأحَـــداثُ تُرعِـــدُ مَـــرةً ... وتُــبرقَ أخَــرَى بالخَطــوبِ ومَــا يَــدري

سَـــواءُ عَـــلى َالأيَـــامِ صّـــاحَبُ حَنكـــةً ... وآخـــرُ كَـــابٍ لاَ يَـــريِش ولاَ يَـــبِري

فَلـــو شَـــاء رَبّي لم أكَـــن ذَا حفَيظـــةٍ ... طلوبـــاً لغَايـــاتِ المكَـــارمِ والفَخـــرِ

خَضــعتُ لـــبعَضَ القَــومِ أرجَــوا نَوالـــهِ ... وقَــد كُنــت لا أعَطِــي الدَنيــةَ بالقَــسرِ

فلَـــما َرأيـــتُ المـــرَءَ يَبـــذلُ َبشَـــرهِ ... ويَجعـــلُ حُسَـــنَ البَشـــرِ واقيـــةَ التَّـــبرِ

رَبعــتُ عَــلَى ظلعـــي ووَاجعَــتُ مَنْــزِلِي ... فصِـــرتُ حَلِيفًـــا للدِراَسَـــة والفكـــرِ

وشـــاورت إِخْـــوَانِي فَقَـــالَ حَكِـــيمَهُم ... عَليـــكَ الْفَتَـــى المـــرُي ذَا الخَلـــق الغمـــرِ

فَتًـــى لم يَقـــفِ فِي الـــدّهر موقـــف ظِنـــةً ... فيحَتـــاجَ فيـــه للتنصُـــلِ والعُـــذرِ

أعَيـــذُكَ بـــالرحمن مِـــنْ قَـــوْل شـــامتٍ ... أبـــوُ الْفَـــرَج المـــأمول يزهـــدُ فِي عَمـــرو

وَلَـــو كَـــان فِيـــه رَاغِبًـــا لرأيتـــه ... كَـــمَا كَـــان دَهْـــرًا فِي الرَّخَـــاء وَفِي اليُســـرِ

أَتَــرْضَى - فــدتك الْيَــوْم نَفَسِــي وأسرتي - ... بِتَـــأْخِير أرزاقـــي وَأَنْـــت تَـــلِي أمـــري

ألاّ يـــا فَتًـــى الكتَّـــاب وَالعَســـكَر الَّـــذِي ... تـــأزر بالحسَـــنى وأيُـــد بالنصَّـــرِ

(1) معجم الأدباء لياقوت (16/ 111).

أَخَــاف عَلَيْــك الْعَــيْن أَو نَفَــس وَامــقِ وذو الــوُّد منخــوبُ الفــؤاد مــن الــذعرِ
وَعَهــديَّ بــه واللـــه يرَشــدُ أَمَــرهُ ويحفظــــه في القــــاطنين وفي السَّـــفرِ
مُطـــلاً عَـــلَى التـــدبير مـــا يســـتفزهُ مكَايـــدُ محتـــالِ عقَاربـــهُ تَســـرِي
بـــرأيٍ يزُيـــل الطـــودِ مـــن مســـتقره وأوَضـحَ عنَـد الخصـم مـن وضَـحِ الفجـرِ
وعـــزمٍ كغـــرب المشـــرفي مصـــممٍ وقلـب ربـيط الجـأش منـثلج الصـدرِ
فيـا ابـن نجـاح أنجـح اللــه سـعيكم وأيـــدكم بالنصــــر والعـــدد الـــدَّثرِ
قعـدتُ فلـم أُطلـب وجُلـتُ فلـم أُصـب خَلــيلاً يواســيني ويرَغــب فِي شُـــكَري
وأن أخففــــت كفــــيَّ وقــــد علقــــتكم فقــد قَــالَ رأيــي واســتنمتُ إلى شــعريِ
أعيـــذك بـــالرحمنِ أن تشُـــمت العِـــدى فللفقُــر َخــيُر مــن شــماتِة ذي الغمــرِ
فــإن تــرَع وديَّ بــالقبول فأهلُــه وَلاَ يعــرفُ الأقــدارَ غــير ذو القــدرِ
وحســـبك بي إن شـــئت وداً وخُلـــةً وَحَســـبُكَ بيَّ يـــومَ النزَاهـــةِ والصَّـــبرِ
ألاَّ ربَّ شُـــكرِ دائَـــرُ الرسَـــمِ دارِسٍ وشُـــكر كـــنقشَ الحمَيريـــة فيَّ الصَّـــخرِ

ثم قال الجاحظ: ونعوذ باللـه أن يكون فيكم ما يستدعي الألفاظ الشريفة، والمعاني النفيسة، ويكون التقصير مني وكيفما تصّرفتْ بي الحالُ فإني لم أخرج من جهد المجتهدين الراغبين المخلصين، فإن وقعت هذه القصيدة، والتي قدمنا قبلها بالموافقة فالحمد للـه.

وأن خالفت فستغفر اللـه، وأن شيعتم ضعفها بقوة كرمكم، وقومتم أودها بفضل حلكم، كان في ذلك بلاغ لما أملنا. واللـه الموفق[1].

(1) رسائل الجاحظ (1 / 359 – 332).

ذكر خبر الجاحظ والحسن بن وهـــب:

قلت: هو الحسن بن وهب بن سعيد بن عمرو بن حصين، كاتب شـاعر، عـاصر كـل من محمد بن عبد الملك بن الزيات، والشاعر أبو تمام.

وكان الجاحظ وكعادته، أرسل إليه رسالة في «مدح النبيذ وصفة أصحابه» وكـما جـاء في رسالته ويبدو لقارئها، أن الحسن بن وهب كـان قليـل الأطنـاب في النبيـذ. فمـمَّا جـاء في هذه الرسالة: «أنا أبقاك الـلـه، الطالب المشغول، والقائل المعذور، فأن رأيت خطأ فلا تنكـر، فأني بصدده وبعرض منه، بل في الحال التي توجبه والسبب الذي يؤدي إليه.

وإن سمعت تسديداً فهو الغريـب الـذي لا نجـده، الـلــهم إلاَّ أن يكـون مـن بركـة مكاتبتك ومن مطالبتك.

ولأن ذكرك يشحذ الذهن، ويصورك في الوهم، ويجلو العقل، وتأميلك ينفي الشـغل. ولا يعجبني ما رأيت من قلة إطنابك في هذا النبيذ، وقلة تلهيك عن هذا الشراب وأنت تجد من فضل القول وحسن الوصف ما لا يصاب عند خطيبٍ، ولا يوجد عند بليغ.

وأنت لو مشيت الخيلاء، وحقـرت العظـماء، وأرغبـت الشـعراء، وأعطيـت الخطبـاء، ليكون القول منهم موصولاً غير مقطوع، ومبسوطاً غير مقصور، لكنت بعد مـقصراً في أمـره، مفرطاً في واجب حقه، فلا تأديب الـلـه قبلت، ولا قول الناصح سمعت»[1].

(1) رسائل الجاحظ (2 / 113).

خبر عزوف الجاحظ عـن الـزواج:

لم يذكر أحد في كتب الأدب وغيره سبب عزوف الجاحظ عن الزواج، وهل من سـبب لذلك، أكانت مطالعته للكتب وإدمانه عليها عزفـه عـن أن يطلـب النسـل، ويعـيش عيشـة الأسوياء، وهل لقبح خلقته عدم الرضى به كزوج، فإنه كان ميسور الحال، ولكنـه أثـر العلـم على الزواج وطلب العيال.

روي عن ميمون بن هارون: قلت للجاحظ: ألك بالبصرة ضيعة؟ فتبسـم وقـال: إنمـا أنا وجارية، وجارية تخدمها، وخادم وحمار، أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك، فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى ابن أبي داود فأعطاني خمسـه آلاف دينار، وأهديت كتاب الزرع والنخل إلى إبراهيم ألصولي، فأعطاني خمسـة آلاف دينـار، فانصرفت إلى البصرة ومعي ضعية لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد[1].

(1) معجم الأدباء (16/ 106).

باب في مجموع أخبار الجاحظ ونوادره

كان الجاحظ رجل فكاهي وظريف، وكان ذلك طبع فيه ولهذا نراه يروي الكثير من النوادر الظريفة التي حصلت له مع الناس، أو يذكر ماسمعه.

أخباره مع أبو العيناء:

وحدث أبو العيناء محمد بن القاسم قال: كان لي صديق فجاءني يوماً فقال لي: أريد الخروج إلى فلان العامل وأحببتُ أن يكون معي إليه وسيلة وقد سألت: من صديقه؟ فقيل لي: أبو عثمان الجاحظ، وهو صديقك وأحب أن تأخذ لي كتابه إليه بالعناية، قال: فصرت إلى الجاحظ، فقلت له: جئتك مسلماً وقاضياً للحق، ولي حاجة لبعض أصدقائي وهي كذا وكذا قال: لا تشغلنا الساعة عن المحادثة وتعرف أخبارنا، إذا كان في غدٍ وجهتُ إليك بالكتاب فلما كان من غدٍ وجه إليَّ بالكتاب، فقلت لأبني: وجه هذا الكتاب إليَّ فلان ففيه حاجته. فقال لي: إن أبا عثمان بعيد الغور، فينبغي أن نفضه وننظر ما فيه، ففعل فإذا فيه: «من لا أوجب حقه، فإن قضيت حاجته لم أحمدك، وإن رددته لم أذمك».

فلما قرأت الكتاب مضيت إلى الجاحظ من فوري، فقال: يا أبا عبد الله، قد علمت أنك أنكرت ما في الكتاب، فقلت: أوليس موضع نكرةٍ. فقال: لا، هذه علامة بيني وبين الرجل فيمن أعتني به. فقلت: لا إله إلا الله، ما رأيت أحداً بطبعك ولا ما جبلت عليه، من هذا الرجل، علمت أنه لما قرأ الكتاب قال: أم

الجاحظ عشرة آلاف في عشرة آلاف.....[1] وأم من يسأله حاجةٍ فقلت له: ما هذا؟ تشتم صديقنا.

فقال: هذه علامتي فيمن أشكره، فضحك الجاحظ، وحدث الفتح بن خاقان، وحدث الفتح المتوكل، فذلك كان سبب اتصالي به وإحضاري إلى مجلسه[2].

ويروى أيضاً رواية أخرى:

وسأل ـ أبو العيناء ـ الجاحظ كتاباً إلى محمد بن عبد الملك في شفاعة لصاحب له، فكتب الكتاب، وناوله الرجل، فعاد به إلى أبي العيناء وقال: قد أسعف. قال: فهل قرأته؟ قال: لا، لأنه مختوم. قال:ويحك، فض طينةٍ أولى من حمل ظنةٍ، لا يكون صحيفة المتلمس[3]، ففض الكتاب، فإذا فيه: موصل كتابي سألني فيه أبو العيناء، وقد عرفت سفهه وبذا لسانه وما أراه لمعروفك أهلاً. فإن أحسنت إليه فلا تحسبه عليَّ يداً، وأن تحسن، لم أعتده عليك ذنباً، والسلام.

فركب أبو العيناء إلى الجاحظ، وقال له: قد قرأت الكتاب يا أبا عثمان، فخجل الجاحظ، وقال: يا أبو العيناء، هذه علامتي فيمن أعتني به.قال: فإذا بلغك أن صاحبي قد شتمك فأعلم أنه علامتهُ فيمن شكر معروفه[4].

ما جرى للجاحظ مع رجل نقد على موضوع في كتابه البيان والتبيين:

نقل عن أبي الفرج علي بن الحسن الأصبهاني، أخبرنا يحيى بن علي، قال حدثني أبي قال: قلت للجاحظ: أنني قرأت في فصل كتابك المسمى «البيان

(1) كلمة قبيحة قالها في أم الجاحظ آثرنا إخفاءها لقبح معناها فلا حول ولا قوة إلاَّ بالله.
(2) معجم الأدباء (16 / 83 / 84).
(3) المتلمس: شاعر جاهلي، واسمه جرير بن عبد العزى مات سنة 50 قبل الهجرة.
(4) نثر الدر (3 /203 – 204).

والتبيين» إن مما يستحسن من النساء اللحن في الكلام واستشهدت ببيتي مالك ابن أسماء يعني قوله:

وحديث ألذه هو مما ينعت الناعتون يوزن وزنا

منطق صائب وبلحن أحياناً وخير الحديث ما كان لحنا

قال: هو كذاك، قلت: أفما سمعت بخبر هند بنت أسماء بن خارجة مع الحجاج، حيث لحنت في كلامها، فعاب ذلك عليها، فاحتجت ببيتي أخيها؟ فقال لها: إن أخاك أراد أن المرأة فطنة، فهي تلحن بالكلام إلى غير المعنى في الظاهر تستر معناه، وتوري عنه وتفهمه من أرادت بالتعريض، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد:30]، ولم يرد الخطأ في الكلام، والخطأ لا يستحسن من أحد. فوجم الجاحظ ساعة ثم قال: لو سقط إليَّ هذا الخبر لما قلت ما تقدم. فقلت له: فأصلحه. فقال: الآن وقد سار الكتاب في الآفاق هذا لا يصلح ـ أو نحو هذا من الكلام.

خبر أبو هفان والجاحظ:

قال أبو حيان: وحدثنا مقسم ـ وقد طال ذكر الجاحظ لأبي هفان ـ قيل لأبي هفان: لِـم لا تهجو الجاحظ، وقد ندد بك وأخذ بمخنقك؟فقال: أمثلي يُخدع عن عقله، والله لو وضع رسالة في أرنبة أنفي لما أمسَت إلاَّ بالصين شهُرةً، ولو قلتُ فيه ألف بيت لما طَنَّ[1] منها بيتُ في ألف سنة[2].

(1) يعني ما سمع لها صوت، ولا أخذت في الشهرة.
(2) معجم الأدباء (16 / 99). وتاريخ بغداد (10/ 158).

خبر الجاحظ مع عجمي فصيـح:

قال الجاحظ: كان يأتيني رجل فصيح مـن العجـم، قـال: فقلـت لـه هـذه الفصـاحة وهذا البيان، لو ادعيت في قبيلةٍ من العرب، لكنت لا تُنـازع فيهـا. قـال: فأجـابني إلى ذلـك، فجعلت أحفظه نسباً حتى حفظه وهذه هذا.فقلـت لـه: الآن لا تتـه علينـا. فقـال: سـبحان اللـه، أن فعلت ذلك فأنا أذاً أدَعِيُ[1].

خبر الجاحــظ وغلامـــه:

قـال الجـاحظ: اشـتريت عبـداً بمائـة درهـم فاسترخصـته، فتعشـيت سـمكاً ونمـت، فاستدعيت منه ماء، فقال: أسكت تأكل السمك، وتشرب عليه المـاء ليتولـد منـه كـذا وكـذا، وأمتنع فلما أشتد عطشي قمت وشربت فقال: يا مولاي أحمل معك حتى أشرب أنا أيضاً[2].

خبر الجاحظ مع معلم كتــاب:

ومن ظريف ما يحكى، أن الجاحظ قال: عـبرتُ يومـاً عـلى معلـم كتـاب، فوجدتـه في هيئة حسنه وقماش مليح، فقام إليَّ وأجلسـني معـه، ففاتحتـه في القـرآن، فـإذا هـو مـاهر، ففاتحته في شي من النحو فوجدته ماهراً، ثم أشعار العرب واللغة، فإذا به كامل في جميع ما يراد منه فقلت: قد وجب عليَّ تقطيع دفتر المعلمين، فكنت كل قليل أتفقده وأزوره.

---

(1) معجم الأدباء (16 / 93).

(2) محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني (1 /437).

قال: فأتيتُ بعض الأيام إلى زيارته، فوجدت الكتاب مغلقاً، فسألت جيرانه فقالوا: مات عنده ميت، فقلت أروح أعزيه. فجئت إلى بابه، فطرقته فخرجت إليَّ جارية، وقالت ما تريد؟ قلت: مولاك.

فقالت: مولاي جالس وحده في العزاء، ما يعطي لأحد في الطريق.

قلت: قولي له صديقك فلان يطلب يعزيك، فدخلت وخرجت.

وقالت: باسم الله.

فعبرتُ إليه، فإذا هو جالس وحده فقلت: أعظم الله أجرك، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، وهذا سبيل لابد منه، فعليك بالصبر. ثم قلت: أهذا الذي توفي ولدك؟. قال: لا. قلت: فوالدك؟. قال: لا. قلت: فأخوك. قال: لا. قلت: فمن؟ قال: حبيبتي. فقلت في نفسي: هذا أول المناحس. وقلت له: سبحان الله تجد غيرها، وتقع عينك على أحسن منها. فقال: وكأني بك وقد ظننت أني رأيتها؟ فقلت في نفسي: هذه منحسة ثانية. ثم قلت له: وكيف عشقت من لا رأيته؟ فقال: أعلم أني كنت جالساً، وإذا رجل عابر يغني وهو يقول:

يا أم عمرو جزاك الله مكرُمة ... ردي عليَّ فؤادي أينما كانا

فقلت في نفسي: لولا أن هذه أم عمرو ما في الدنيا مثلها ما كان الشعراء يتغزلون فيها.

فلما كان بعد يومين عبر عليَّ ذلك الرجل وهو يغني و يقول:

إذا ذهب الحمار بأم عمرو ... فلا رجعت ولا رجَع الحمار

فعلمت أنها ماتت فحزنت عليها، وقعدتُ في العزاء منذ ثلاثة أيام. قال الجاحظ: فعادت عزيمتي وقويت على كتابة الدفتر أم عمرو[1].

خبر حوار الجاحظ مع رجل بخيـل:

قال الجاحظ للخزامي: أترضى أن يقال لك بخيل؟ قال: لا أعدمني الله هذا الاسم، لأنه لا يقال لي: بخيل إلا وأنا ذو مال، فسلم لي المال وسمني بأي أسم شئت.

فقال الجاحظ: جمع الله لأسم السخاء المال والحمد، وجمع لاسم البخل المال والذم. قال: بينهما فرق عجيب وبون بعيد، إن في قولهم بخيل، سبباً لمكث المال، وفي قولهم سخي، سبباً لخروج المال عن ملكي، واسم البخيل فيه حفظ وذمّ، واسم السخيَّ فيه تضييع وحمد، والمال ناض[2] ونافع، ومكرم لأهله، والحمد ريح وسخرية ومسمعه وطرمذة[3]، وما أقل غناء الحمد عنه إذا جاع بطنه، وعُري ظهره وضاع عياله، وشمت به عدوه[4].

خبر الجاحظ مع رجل آذاه:

قال محمد بن يزيد المبرد: سمعت الجاحظ يقول لرجل آذاه: أنت والله أحوج إلى هوان من كريم إلى أكرم، ومن علم إلى عمل، ومن قدرة إلى عفو، ومن نعمة إلى شكر[5].

---

(1) ثمرات الأوراق لا بن حجة الحموي ص 299.

(2) ناض: أي له مدة وبقاء.

(3) طرمذ: صلف وكان مفاخراً ومباهياً بما ليس فيه.

(4) العقد الفريد (7 / 191).

(5) تاريخ بغداد (10 / 158).

نادرة للجاحظ مع جارية:

قال الجاحظ: طلبتُ بعض أصدقائي في داره فلم أجده، فقلت لجاريته: إذا حضر صاحبك فقولي له: إن الجاحظ كان بالباب. قالت: نعم الجاحد بالباب ! قلت: قولي الحَدقي. قالت: نعم الحلقي. فقلت: عَليكِ بالأول[1].

خبر الجاحظ مع رجل فقير:

قال الجاحظ: قلت لعبيد الكلابي وكان فصيحاً فقيراً: أيسُرُكَ أن تكون هجيناً ولك ألف جريب؟ قال: لا أحب اللؤمُ بشيء ! قلت: فإن أمير المؤمنين ابن أمةٍ !

قال: أخزى الله من أطاعه.

قلت: نبي الله محمد وإسماعيل كانا ابني أمةٍ. قال: لا يقول هذا إلا قدري، قلت: فما القدري؟ قال: لا أدري[2].

خبر الجاحظ وبشر المريسي:

ذكر أبي القاسم عبد الرحمن الزجاجي، في كتابه « مجالس العلماء » حدثني أبو الحسن قال: حدثني أبو العباس محمد بن يزيد قال: حدثني أبو عثمان المازني قال: قال لي الجاحظ: رأيتُ المريسي، وقد سئل عن رجلٍ، فقال: هو على أحسن حال وأهيؤها. قال: فقلتُ لأصحابه: لحنَ. فقالوا لي: أترى إننا نبطل قول المريسي ونقبل منك؟ فذهبوا فسألوا ثمامة، فقالوا: إنَّ المريسي سُئل عن رجلٍ

---

(1) محاضرات الأدباء (1 / 136).
(2) محاضرات الأدباء (1 / 728).

فقال: هو على أحسن حال وأهيؤها ! فقال الجاحظ: لحنَ. فقال ثمامة: أخطأ الجاحظ، الجاحظ أحمق ! هذا يجوز على قوله:

* إنَّ سُليمى والله يكلؤها[1] *

خبر الجاحظ مع الفلوسكي:

قال الجاحظ: دعا أبو عبد الله الواسطي إلى ضيع، فدعاني، فدعوت أنا الفلوسكي، فلما كان من الغد صبح الفلوسكي الجاحظ، فقال له: أما تذهب بنا هناك يا أبا عثمان؟ قال: نعم. قال: فذهبنا حتى أتينا دار صاحب الضيع، ولم يكن علينا كسوة رائعة، ولا تحتنا دواب فتدخل تجاهنا، فوجدنا البواب ذا غلظٍ وجفاء، فمنعنا، فانحدرنا في جانب الإيوان ننظر أحداً يُعلم أبا عبدا لله الواسطي بحالنا، فمكثنا حيناً حتى أتى من نعرفه، فسألناه أن يُعلمُ أبا عبدالله الو اسطي بنا، فلما أخبر خرج إلينا يتلقانا، فتقدمني الفلوسكي، وتقدمه حتى أتى صدر المجلس، فقعد فيه، ثم قال لي: ههنا عندنا يا أبا عثمان ! فلما خلونا ثلاثتنا، قلت للفلوسكي: كيف تسمي العرب من أمالت إلى نفسها؟ قال الفلوسكي: تسميه ضيفاً. فقال له الجاحظ: وكيف تسمي من أماله الضيف؟ قال: تسميه ضيفنا. قال الجاحظ: وكيف تسمي من أماله الضيفين؟ قال: ما لمثل هذا عند العرب تسمية. قال الجاحظ: فقلت: قد رضيت أن تكون في منزلة من التطفيل لم تجد لها العرب أسماء، ثم تتحكم تحكم صاحب البيت[2].

---

(1) مجالس العلماء للزجاجي ص 122.

(2) العقد الفريد (7 / 208).

خبر الجاحظ مع قــاص:

قال الجاحظ: وقفت يوماً على قاص، فأردتُ الولعَ بـه فقلـت لمـن حولـه: أنـه رجـل صالح لا يحب الشهرة، فتفرقوا عنه، فنظر إليَّ وقال: حسبك اللـه[1]!

وفي رواية: اللـه حسيبك إذا لم يَرَ الصياد طيراً كيف يمد شبكته[2]؟

خبر الجاحظ والمرأتين:

قال الجاحظ: ما أخجلني مثل امرأتين: رأيـت أحـداهما في العسـكر، وكانـت طويلـة القامة، وكنت على طعام، فأردتُ أن أمازحها، فقلتُ: انزلي كـلي معنـا. فقالـت: أصـعد أنـت حتى ترى الدنيا.

قلت: وكان الجاحظ قصير القامة.

قال الجاحظ: وأما الأخرى فإنها أتتني وأنا على باب داري، فقالـت: لي إليـك حاجـة، وأريد أن تمشي معي. فقمت معها إلى أن أتت بي إلى صانع يهـودي، فقالـت لـه: مثـل هـذا. وانصرفت. فسألت الصائغ عن قولها، فقال: أنها أتت إليَّ بفص، وأمرتني أن أنقش لهـا عليـه صورة شيطان، فقلت: يا ستي، ما رأيت الشيطان ! فأتت بك، وقالت: ما سمعت[3]!

قلت: اختارت الجاحظ لأنه قد عرف بقبح خلقته، وقد صورته كالشيطان، وكأنما قـد شبهت الشيطان بذي خلقة بشعة.

---

(1) سرح العيون لا بن نباته المصري ص 251.

(2) تاريخ دمشق (45 / 438).

(3) سرح العيون لا بن نباته المصري ص 250.

خبر الجاحظ مــع أحد الثقــلاء:

قال الجاحظ: أتاني بعض الثقلاء، فقال سمعت أن لك ألف جواب مسكت، فعلمنـي منها. فقلت: إنها لا تتعلم، فأن الجواب على قدر الكلام. فقال: على كل حـال. فقلـت: نعـم. فقال: إذا قال لي شخص: يا زوج...[1] يا ثقيل أيش أقول له؟ قل له: صدقت[2]!

خبـر الجــاحظ وأبا الربيع الغنــوي:

وحدث المبرد قال: قال الجاحظ: أتيت أبا الربيع الغنوي أنا ورجـل مـن بنـي هاشـم فأستاذنا عليه فخرج إلينا وقال: خرج إليكم رجل كريم والـلـه. فقلت له: من خير الخلق يـا أبا الربيع؟

فقال: الناس والـلـه.

قلت: ومن خير الناس؟.

قال: العرب والـلـه.

قلت: فمن خير العرب؟.

قال: مُضرُ والـلـه.

قلت: فمن خيرُ مُضرَ؟.

قال: قيس والـلـه.

قلت: ومن خير قيس؟.

قال: أعصرُ والـلـه.

---

(1) كلمة بذيئة آثرت حذفها من كتابنا هذا.

(2) سرح العيون لا بن نباته المصري ص 251.

قلت: فمن خير أعَصُرُ؟.

قال: غنيُ والله.

قلت: فمن خير غني؟.

قال: أنا والله.

قلت: فأنت خير الخلقِ؟.

قال: أي والله.

قُلتُ: أيسرك لو أنك تزوجت بنت يزيد بن المهلب؟.

قال: والله لا أدنس كرمي بلؤمها. قلت: على أن لك الجنة. ففكر ساعة ثم قال: على ألا تلد مني وأنشد:

تأبى لأعصر أعراق مهذبة ... من أن تناسب قوماً غير أكفاء

فإن يكن ذاك حتماً لا مرد له ... فأذكر حُذيفَ فإني غير أباء

حذيفة بن بكر، وإنما ذكره من بين الأشراف، لأنه أقربهم إليه نسباً[1].

خبر الجاحظ مع من يدق على بابه:

ودق باب الجاحظ رجل فقال: من؟ قال: أنا. قال: أنت والدق سواء.

ودق آخر فقال: من؟قال: أنا.قال: لا نعرف من أسمه أنا.

ودق آخر فقيل من؟ قال: ما أفلح ذو أنا[2].

(1) معجم الأدباء لياقوت (16 / 86).
(2) محاضرات الأدباء (3 / 670).

خبر الجاحظ مع رجل لم يأكل عنده لحمــاً:

قال الجاحظ: نزلتُ على صديق لي، فلم آكل عنده لحماً، فعرضت له، فقـال: إني لا أكـثر من اللحم منذ سمعت الحديث: «إن الـلـه يكره البيت اللحم»[1].

فقلت له: يا أخي، أنما أراد البيت الذي تؤكل فيه لحـوم النـاس بالغيبـة، فلـم يـؤخر حضور اللحم من ذلك اليوم[2].

نادرة للجاحظ مــع رجل:

قال الجاحظ لرجلٍ: كم بيتٍ في دارك؟ فقال: صُفةٌ وكنيفان.

فقال: هذا تقطيع رجل مبطون[3].

خبر الجاحظ مع رجل مشغوف بالإبل:

وقال الجاحظ: قلت لعبيد الكلابي وكان مشغوفاً بالإبـل: أبيـنكم وبـين الإبـل قرابـة؟ قال: نعم، خؤولة. فقلت: مسخك الـلـه بعيراً. فقال: أن الـلــه لا يمسـخ أنسـاناً عـلى صـورة كريم، وإنما يمسخه على صورة لئيم[4].

خبر الجاحظ مـع معلم:

قال الجاحظ: أنشد معلم:

النــــاس في غفلاتهـــم ... ورحـــا المنيـــة تعجـــن

---

(1) هذا الحديث لم أقف عليه.
(2) سرح العيون لا بن نباته المصري ص 253.
(3) محاضرات الأدباء (4 /535).
(4) محاضرات الأدباء (4 /799).

فقلت: هو تطحن.

فقال: أسكت صاروا دقيقاً[1].

خبر الجاحظ والعبد الأســود:

وقال الجاحظ: رأيت عبداً أسود لبنـي أسـيد، قـدم إلينـا مـن شـق اليمامـة فبعثـوه ناطوراً[2]. وكان وحشياً يغرب في الإبل، فلما رآني سكن إليَّ، فسمعته يقول: لعـن اللــه بـلاداً ليس بها عرب، قاتل الـلـه الشاعر[3] حيث يقول:

* حُر الثرى مستغرب التراب[4]*

خبر الجاحظ مع رجل يبكي مخافة ألا يسكــر:

وقال الجاحظ: رأيت أسود في يده قنينة وهو يبكي. فقلت له: ما يبكيك؟ قال: أخاف أن تنكسر قبل أن أسكر[5]!

قلت: على ما جاء فيها من نـادرة، إلا أننـا نـرى للجـاحظ نـوادر يحكيهـا عـن أنـاس عاصرهم، وهي كثيرة للغاية، وعُرف عن الجاحظ أنه لا يخفي شيئاً يراه، أو قولاً سمعه، وإن كان ما رآه قبيح، أو قول في باطل، فإنه يصـرح بذلك دون خفاء.

---

(1) محاضرات الأدباء (4 /869).

(2) ناطوراً: الناطور: حافظ الكرم والنخل.

(3) الشاعر هو جندل بن المثنى الطهوي.

(4) نثر الدر (35/6).

(5) نثر الدر (6 / 528).

الجاحظ والخباز الذي يكــذب:

وقال الجاحظ: قيل لخبازٍ أنك لتكذب بالحديث.قال: وما علَيكَ إذا كـان الـذي أزيـد فيه أحسن منه، فو اللـه ما يُنفعك صدقهُ ولا يضرك كذبـهُ، ومـا يـدور الأمـر إلاَّ عـلى لفـظ جيد، ومعنى حسن. لكنك واللـه لو أردت ذلك، لتلجَجَ لسانُكَ، ولذهبَ كَلاُمكَ[1].

نادرة للجاحـظ مع عاطــس:

قال الجاحظ قلت يوماً لعبدوس بن محمد، وقد سألته عن سـنّه: لقـد عجـل عليـك الشيبُ. فقال: وكيف لا يُعجَل عليَّ؟وأنا محتاج إلى مـن لـو نفـذ فيـه حكمـي لسرحتـه مـع النعاج، وألقطه مع الدجاج وجعلته قيم السراج، ووقاية يد الحلاج، هذا أبـو ساسـان أحمـد بن العباس العجلي، له ألف ألف درهم في سنة، فعطـس.فقلـت لـه: يرَحمُـكَ اللـــه. فقـال: يعرفكم اللـه[2].

نادرة للجاحظ مـع مغفـل:

قال الجاحظ: قلتُ لأبي الجسيم: إن رأيتَ أن ترضى عن فلان فأفعل. قال: لا واللـــه حتى يبلغني أنه قد قبل رجلي[3].

خبر الجاحظ والمعلــم:

وقال الجاحظ: ومررت بمعلم وهو يلقن صبياً:

يـــا أبـــا الغيـــاس جثـــى   أجــــرح الفتيــــان غثـــا

---

(1) نثر الدر (539/6).
(2) نثر الدر (360/7).
(3) نثر الدر (360/7).

لبش في الأرض إياس   شزنوا أيلج مثا

فقلت بالعبرانية هذا؟ قال: أخرج الفتيان عنا

ليس في الأرض أناس   شربوا ملح منا

فقلت أيها المعلم، إنك ضائع بهذا البلد، قال: نعم، قدور ومزاريق(1).

خبر الجاحظ في نسيان كنيته ثلاثة أيام:

وقال الجاحظ نسيت كنيتي ثلاثة أيام، فأتيت أهلي فقلت: بمن أكنى؟ فقالوا: بأبي عثمان(2).

قلت:ربما كان سبب نسيانه كنيته، لمطالعته للكتب لساعات طوال، فقد يحدث هذا، بل قد يحدث في نسيان أسماء أناس نعرفهم فسألوا أهل الكتب، فتراهم لا يعرفون عن الدنيا وما فيها إلاَّ قليلاً، ولو سألتهم عن أحوال الآخرة، وما فيها كائن لتحدثوا عنها، وقد أكون واحداً منهم.

الجاحظ وقول ابن غزوان في امرأة العزيز:

قال الجاحظ: قرأ قارئ: ﴿ قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ [يوسف: 32]. فقال إبراهيم بن غزوان: لا، والله ما سمعت بأعدل من هذه الفاسقة، أما والله لو تحرشت بي ما استعصمت(3).

---

(1) محاضرات الأدباء (1 / 217).

(2) تاريخ بغداد (10 / 158).

(3) أخبار النساء لا بن القيم الجوزية ص 124.

ظـــرف الجاحـــظ:

يروي أن الجاحظ: أشترى خصياً أسود. فقيل له في ذلك، فقال: أخذته أسود لئلا يتهم بي، وخصياً لئلا أتهَّم به[1].

خبر الجاحظ مع جماعة من زواره:

وحكي أبا طاهر، قال: صرت إلى الجاحظ ومعـي جماعـة، وقـد أسـنَّ وأعتـل في آخـر عمره. وهو في منظرةٍ له، وعنده بن خاقان جاره، فقرعنا الباب فلـم يفـتح لنـا، وأشرف مـن المنظرة، فقال: ألا أني قد حَوقلت، وحملت رُميح أبي سعد، وسقت الغنم، فـما تصـنعون بي؟ سلموا سلام الوداع، فسلمنا وانصرفنا.

قال ابن نباته المصري رحمه الـلـه تعالى: قوله: «حَوقلت» أكثرت من قولي: «لا حـول ولا قوة ألا بالـلـه» لتتابع الأمراض، وقوله: «سقت الغنم» هو عند العرب كناية عـن الهـرم، لأن سائق الغنم يطأ من رأسه[2].

قلت: يتبين لنا وبجلاء أن الجاحظ في أيام علته كان لا يجيء له زائـر، إلاَّ مـن كـان يـود السلام عليه من بعيد، وهو سلام مودع، حسب رغبة الجاحظ نفسه.

يروي حكاية الفضل بن العباس مع بعض ولد جعفر الطيار:

وحـكي الجـاحظ قـال: شرب ليلـة ـ يعنـي الفضـل بـن العبـاس بـن عتبـة بـن أبي لهب ـ مع بعـض ولـد جعفـر عـلى سـطح، فلـما سـكر الجعفـري رمـى بنفسـه إلى أسـفل

---

(1) سرح العيون لا بن نباته المصري ص 252.

(2) سرح العيون لا بن نباته المصري ص 253.

وقال: أنا ابن الطيار في الجنة، فتكسر وتهشم، فتشبث الفضل بالحائط وقال: أنا ابن المقصوص في النار[1].

يبر قسمه بثلاثمائة رطبة:

نقل عن أبي بكر بن بالوية يقول: سمعت أبا بكر محمد بن أسحق يقول: قال لي إبراهيم بن محمود ونحن ببغداد، ألا تدخل على عمرو بن بحر الجاحظ؟ فقلت: مالي وله؟ فقال: إنك إذا انصرفت إلى خرسان سألوك عنه، فلو دخلت إليه وسمعت كلامه؟ ثم لم يزل بي حتى دخلت عليه يوماً، فقدم إلينا طبقاً عليه رطب. فتناولت منه ثلاث رطبات وأمسكت، ومر فيه إبراهيم، فأشرت إليه أن يمسك، فرمقني الجاحظ فقال لي: دعه يا فتى فقد كان عندي في هذه الأيام بعض إخواني، فقدمت إليه الرطب فأمتنع فحلفت عليه فأبى إلاَّ أن يبر قسمي بثلاثمائة رطبة[2].

خبر الجاحظ مع رجل قصير قال فيه شعراً:

قال يموت بن المزرع، قال لنا عمرو بن بحر الجاحظ: ما غلبني أحد إلا رجلٍ وامرأة، فأما الرجل فإني كنت مجتازاً في بعض الطرق، فإذا أنا برجل قصير بطين كبير الهامة طويلة اللحية، متزر بمئزر وبيده مشط يسقي بها شقه ويمشطها به، فقلت في نفسي: رجل قصير بطين ألحى، فاستزريته، فقلت: أيها الشيخ، قد قلت فيك شعراً، قال: فترك المشط من يده، وقال: قل، فقلت:

---

(1) سرح العيون ص 345.

(2) تاريخ بغداد (10 / 160).

كأنــك صــعوة في أصــل حــش أصــاب الحــش طــش بعــد رش

فقال لي: أسمع جواب ما قلت، فقلت: هات.

كأنــك كنــدب في ذنــب كــبش تدلــدل هكــذا والكــبش يمــشي

خبره مع امرأة:

وأما المرأة فإني كنت مجتازاً في بعض الطرقات، فإذا أنـا بـامرأتين، وكنـت راكبـاً عـلى حمارة، فضرطت الحمارة، فقالت أحدهما للأخرى: وأي حمارة الشيخ تضرط، فغاظني قولها، فأعننت ثم قلت لهما: أنه ما حملتني أنثـى قـط، إلاَّ ضرطـت، فضربـت بيـدها عـلى كتـف الأخرى، وقالت: كانت أم هذا منه تسعة أشهر في جهد جهيد(1).

خبر الجاحظ مع امرأة تدعـى مكـة:

نقل عن أحمد البلاذري، عن محمـد العمـري، قـال سـمعت الجـاحظ يقـول: رأيـت جارية ببغداد في سوق النخاسين ينادي عليها، فدعوت بها، وجعلت أقبلها.

فقلت لها: ما أسمك؟

قالت: مكة.

قلت: اللـه اكبر، قد قرب اللـه الحج، أتأذنين أن أقبل الحجر الأسود؟

قالـت: إليـك عنـي، أولم تسـمع اللـــه تعـالى يقـول: ﴿**لم تكونـوا بالغيـه إلا بشـق الأنفس**﴾ [النحل: 7](2).

(1) تاريخ دمشق (45 / 436).
(2) تاريخ دمشق (45 / 437).

نـادرة للجاحظ:

عن يموت بن المزرع قال: سمعت خالي عمرو بن بحر الجـاحظ يقـول: أمليـت عـلى إنسان مرة: أنا عمروا فاستملى: أنا بشر، وكتب: أنا يزيد[1].

جواب الجاحظ لرجل سأل عن حـاله:

نقل عن عليّ بن القاسم الأديب الخوافي، حدثني بعض أخواني أنه دخل على عمرو بـن بحر الجاحظ فقال: يا أبا عثمان كيف حالك؟ فقال له الجاحظ: سألتني عـن الجملـة، فاسـمعها مني واحداً وحداً. حالي أن الوزير يتكلم برأيي، وينفذ أمري ويؤاثر الخليفـة الصـلات إليَّ، وآكـل من لحم الطير أسمنها، وألبس من الثياب ألينها، وأجلـس عـلى ألـين الطـبري، وأتكـئ عـلى هـذا الريش ثم أسير على هذا حتى يأتي اللـه بالفرج. فقال الرجل: الفرج ما أنت فيه. قال: بل أحب أن تكون الخلافة لي، ويعمل محمد بن عبد الملك بأمري، ويختلف إليَّ، فهذا هو الفرج[2].

(1) تاريخ دمشق (45 / 438).
(2) تاريخ بغداد (10 / 1).

باب
في ذكر ما له من الشعر وإنشاده لــه

قال أبو الحسن الدهماني غفر الـلـه له ولوالديه: للجاحظ شعر، لكنه ليس مجموع في كتاب وهذا لا ريب يدعو للعجب أكان الجاحظ قد دون ديواناً لقصائده، لسـنا في تأكيـد من ذلك، فأكثر مصنفاته مفقودة، ومـا حفـظ لنـا مـن شـعره وقصـائده إلاَّ علـماء الأدب في كتبهم، وهي بلا ريب قليلة جداً.

فالجاحظ أديب سطع نجمه وسارت بكتبه الركبان في كل الأقطـار، ألـيس يكـون لـه مجموع شعر مدون، أم هل كان هو نفسه ينشد القصائد هنا وهنا سواء كانت له أم لغيره، وهناك قصائد أنشدها لغيره، وهناك قصائد قيلت أنها له.

وأكبر الظن، أن الجاحظ لم يكن يجيد فن كتابة القصائد، وهو يعلم بنفسه من غيره، مـا إذا كان يجيد هذا أم لا، وعلى كل حال هو أديب وناقد للشعر حاذق مثقف في كتابة الرسـائل، ولفقد كتبه وهي كثيرة يدعونا للحيرة في إجادته للشعر أم لا.

وعند التقصي في شعره والذي أمتاز بالتنوع في الموضوعات، من مـديح وهجـاء وغـير ذلك، حصلنا على مجموع لا بأس به من القصائد، ومن الملاحـظ أنهـا قصـائد قصـار، وهـذا يدعونا للسؤال، هل للجاحظ نظرة خاصة في كتابة الشعر، أم أن قريحته لا تودي أكـثر مـما تستطيع. وكنا قد ذكرنا له قصيدة مطولة وهي ضـمن رسـالة لـه إلى ابـن الفـرج بـن نجـاح يسأله إطلاق رزقه.

وعدد الأبيات نحو ثمان وعشرين بيتاً، وتكاد تكون أطول قصيدة كتبها الجاحظ وربما هناك ما هو أطول من ذلك، لكنني لم أعثر له على شيء، لكنني على كل حال أدرك ملياً وواثق من ذلك أن الجاحظ ليس بصاحب نظمٍ، وإنما هو صاحب نثرٍ بليغ.

شعر للجاحظ للقاضي أبن أبي داود:

وَغَوِيصٍ مِنَ الأمُورِ بَهِيمِ ... غَامِض الشَّخَصِ مُظلِمٍ مَستور

قَد تَسنَمَّتَ مَا تَوعَّرَ مِنَهُ ... بلَسانٍ يُزينِهُ التَّحبُيِرُ

مِثلَ وشَي البُرُوَدِ هَلله النَسجُ ... وعِنَدَ الحِجاجُ دُرَ نَثيرُ

حَسَنُ الصَّمتْ والمقَاطِعِ إمَّا ... نصَتَ القَومُ والَحدِيثُ يَدوُرُ

ثُمَّ مِنْ بعَدِ لحظَةِ تُورَثُ اليُسْرَ ... وعِرضْ مُهَدبُ مَوفُورُ

وكتب الجاحظ إلى أحمد بن داود:

لاَ تَرانيِ وإنَّ تطاولتُ عَمَداً ... بَين صفِيهمُ وأنَتَ تَسيرُ

كُلهُم فاضِلُ عليَّ بمالِ ... وَلسَاني يُزينهُ التَحبيِرُ

فَإذاَ ضمَنا الحِديثُ وبيَتُ ... وَكأني على الجمَيعَ أمَيرُ

رُبَّ خَصمٍ أَرَقّ مِن كُل رُوحٍ ... ولَفرِطَ الذَكَاءِ يَكادُ يطَيرُ

فإَذاَ رَامَ غَايِتي فهَو كَابٍ(1) ... وَعَلى البُعدِ كَوكَبُ مَبهُورُ(2)

(1) الكابي: الساقط.
(2) المبهور: المغلوب بضؤ غيره من الكواكب، وانظر معجم الأدباء (16 /80 / 81).

وأنشد الجاحظ:

وَلــيِسَ يَزجـــرُكم مَـــا تُوعِظـــوُن بـــه   وَالـــبِهَمُ يزجرُهـــا الرَّاعِـــي فتنزجـــرُ[1]

وانشد أبو العيناء للجاحظ شعراً قال فيه:

يطيـــب العـــيش أن تلقـــي حكـــيماً   غـــذاة العلـــم والظـــن المصـــيب

فيكشـــف عنـــك حـــيرة كـــل جهـــل   وفضـــل العلـــم يعرفـــه الأديـــب

ســـقام الحـــرص لـــيس لـــه شـــفاء   وداء الجهـــل لـــيس لـــه طبيـــب

ونقل عن أبو بكر الجرجاني، قال: أنشدنا المبرد للجاحظ:

إن حـــال لـــون الـــرأس عـــن حالـــه   ففـــي خضـــاب الـــرأس مســـتمتع

هـــب مـــن لـــه شـــيب لـــه حيلـــة   فـــما الـــذي يحتالـــه الأصلـــع[2]؟

الجـاحظ وشعره في إبراهيم بن رياح:

قال أبو العيناء، عن إبراهيم بن رياح، قال: أتاني جماعة من الشعراء فأنشدوني، كل واحدٍ منهم يدعي أنه مدحني بهذه الأبيات، وأعطي كل واحد منهم عليها وهي:

بـــدَا حَـــينَ أثـــرَى بإخوانـــهِ   ففَلـــلَ عَـــنهمُ شَـــباه العَـــدَمْ

وَذَكـــرهُ الـــدَّهرُ صَرفَ الزَمـــانَ   فبَـــادرَ قبَـــلَ انَتقـــالِ الـــنَعمْ

فتـــىً خَصَّـــهُ اللـــه بالمكُرمَـــاتِ   فَـــمازجَ مِنـــهُ الحَيـــاء بـــالكَرمْ

ولا ينكـــث الأرض عنـــد الســـؤال   يقطـــع زواره عـــن نعـــم

---

(1) المستطرف (1 / 104).
(2) تاريخ بغداد (10 /159).

ويقـال أن الجـاحظ مـدح بهـذه الأبيـات أحمـد بـن أبي داود، وإبـراهيم بـن ربـاح، ومحمد بن الجهم[1].

قال أبو علي القالي ـ رحمه اللـه تعـالى ـ أنشـدنا أحمـد بـن يحيـى النـديم، قـال: أنشدنا الجاحظ عمرو بن بحر:

أزف البَـــينُ المبُـــينِ — قَطَـع الشَـكَّ اليقـين
حَنَّـتِ العِـيسَ فأبكَـاني — مـن العِـيس الحنـين
لم أكـن لا كنـت أدري — أن ذا البـين يكـون
علمـوني كيـف أشـتاق — إذا خـف القطيـن[2]

وقال أبو علي القالي- رحمه اللـه تعالى -: أنشدنا بعض أصحابنا قال: أنشدني عمرو بن بحر الجاحظ:

أَنـا أَبْـكِي خَـوفَ الْفِـرَاق لِأَنِّي — بِالَّـذِي يَفْعَـل الْفِـرَاقُ عَلِـيم
أنـا مسـتيقن بـأن مُقـامي — ومَسِـيرَ الحبيـب لا يسـتقيم[3]

وقال أبو علي القالي: أنشدنا أبو محمد النحوي، قال: أنشدنا أبو العباس محمد بـن يزيد، قال: أنشدني عمرو بن بحر الجاحظ:

وإنَّ عَنَّـاء أنَ تُفهَـم جَـاهلاً — فيَحسَـبَ جَهـلاً أنـهُ مِنـكَ أفهـمُ
متـىَ يُبلـغُ البنَيـانُ يوَمَـاً تمَامَـه — إذَا كنَـتَ بنيتـه وغـيرك يَهِـدمُ

(1) معجم الأدباء (16 /81 / 82).
(2) الأمالي لأبي علي القالي (1 / 63).
(3) الأمالي لأبي علي القالي (1 / 168).

متـىَ ينتِهِـيَ عـن سَيءُ مـن أتَى بـهِ إذَا لم يَكُـن مِنـهُ عليَـه تَنّـدمُ(1)

وأنشد الجاحظ لسهل بن هارون يهجو به رجلاً:

مـن كـان يعمـر مـا شـادت أوائلـهُ فأنـتَ تعَمـرُ مـا شـادوُا ومَـا سَـمكوُا(2)

مَـا كـان في الحـقَّ أن تَحـوِي فعَـالهمُ وأنـت تحـوي مـن الميراث مـا تركـوا(3)

وأنشد أبو عثمان الجاحظ لأعرابي:

أيـن إخـوانـا عـلى السَّـراء أيـن أهـلَ القِبـابِ والـدهَناءِ

جَاورُنـا والأرَضُ ملبسـةُ نـوَرُ أقـاحٍ يجُـادُ بالأنَـواءِ

كـلَّ يـوَمٍ بـأقُحوَانِ جَديَـدٍ تضَـحكُ الأرَضُ مِـن بكَـاء السـماءِ(4)

الجاحظ يهجو الجمـاز:

كان قد وقع بين الجاحظ والجماز أمراً، ويروى أنهما اجتمعا بالبصرة في مجلسٍ، فقال له الجماز: كم ناراً في اللغة؟

فقال: نار الحب، ونار الشجر، ونار الحباحب، ونار المعدة، والنار المعروفة.

فقال الجماز: تركت أبلغ النيران، قال: وما هي؟قال:.....!!

قلت: فقال الجماز قَولاً قبيحاً جداً في أم الجاحظ، ثم أن الجاحظ لم يسكت فرد عليه بالمثل، فلا حول ولا قوة إلا بالله. ولست أذكر ما قالا، وأمرهما إلى الله.

---

(1) الأمالي لأبي على القالي (2 / 94).
(2) سمكوا: رفعوا.
(3) زهر الآداب وثمر الألباب (2 / 317).
(4) العقد الفريد لا بن عبد ربه (4 / 51).

وحصل أن هجا الجاحظ الجماز وكذلك الجماز رد على الجاحظ بهجاءٍ.

قال يموت بن المزرع: هجا خالي أبو عثمان الجاحظ الجماز بأبيات منها:

نســـب الجـــماز مقصـــور إليـــه منتهـــاهُ تنتهـــي الأحســـابُ بالنـــاسِ ولا تعـــدوُ قفـــاهُ

فكتب إليه الجماز:

يـــا فتـــىً نفســـه إلى   الكُفـــرِ باللـــه تائقـــة

لـــكَ في الفَضـــلِ والتَزهَـــدُ   والنُســـــكِ ســـــابقة

ومن هجاء الجماز للجاحظ قوله:

قـــال عَمـــروُ مفُـــاخراً   نَحـــنُ قَـــومُ مِـــنَ العَـــربِ

قُلـــــتُ في طاعـــــةِ   لَرِبـــكَ أبَلِيـــتَ ذاَ النسَـــبِ[1]

وأنشد أبي كريمة البصري شعراً في الجاحظ فقال:

لم يظلـم اللـه عمـراً حـين صـيره   مـن كـل شي سـوى آدابـه عـاري

ثبـت حبـال وصـالي كفـهُ قطعـت   لمـا اسـتعنت بـه في بعـض أوطـاري

فكنـت في طلبـي مـن عنـده فرجـاً   كالمسـتغيث مـن الرمضـاء بالنـار

إني أعيـذك والمعتـاذ محـترس   مـن شـؤم عمـرو يعـزّ الخـالق البـاري

فـإن فعلـت فحـظ قـد ظفـرت بـه   وإن أبيـت فقـد أعلنـت أسراري

قلت: وللجاحظ قصائد أخرى قالها في آخر حياته وهو عليل، سنذكره في موضعه إن شاء اللـه تعالى[2].

---

(1) معجم الأدباء (16 /82 – 83).
(2) تاريخ دمشق (45 / 442).

قال الجاحظ: رويت هذا البيت دهراً لا أعرف له ثانياً، فسمعت يوماً حمامياً يوقد أتونهَ، وينشد معه:

هـــو القُطـــب الِـــذيَ دَارت عليــــه رَحَـــى اللـــذَّاتِ في الـــزَمنِ القـــدَيمِ[1]

وقال الجاحظ: كم بين قول امرئ القيس:

* تقول وقد مال الغَبيِطُ بنا معاً *

وبين قول علي بن الجهم:

سقى اللــه ليلاً ضمنا بعد هَجعْةِ وأدنى فــؤاداً مــن فــؤادِ مُعــذبِ

فبتَنــا جميعــاً لــو تُــراقُ زُجاجَــة مــن الــرَّاحِ فــيما بيننــا لم تســربِ

وقال:

فبتنـــا عـــلى رغـــم الحســـودِ كأننـــا خليطـانِ مــن مـاء الغمامــة والخمـرِ[2]

قال ابن نباته رحمه اللـه تعالى: وأورد للجاحظ ـ الشريف المرتضى ـ والعُهدة عليه، فإن هذا الشعر أرفع طبقة من شعره يذكر فيه الخضاب:

رُب فتـــاةٍ مـــن بنـــي هـــلال قـــد عِجَلـــت إليَّ بالســـؤالِ

مـــالي أرَاكَ قـــانيء السَّـــبال كأنمـــا كَرعَـــتَ في جريـــالِ

مــا يبتغــي مُثلــكَ مِــن أمثــالي تــنحَ عــن فكــري وعــن خيــالي[3]

(1) محاضرات الأدباء (2 / 660).
(2) محاضرات الأدباء (3 / 227).
(3) سرح العيون ص 58 – ص 59.

ومن شعر الجاحظ أيضاً قوله:

وكـــم كـــانَ مـــن أصـــدقاء لـــه   واعـــداً تفـــانوا فـــما خلـــدوا
تسَـــاقوا جميعـــاً كئـــوس الـــرَّدىَ   فـــمات الصـــديق ومـــات العـــدو[1]

أعجاب الجاحظ بشعرٍ للفرزدق:

قلت: كان الجاحظ كثير التعليق على كلام الشعراء، بـل وينتقـد مـا يقولونـه، ولهـذا كان الجاحظ يستحسن كلامٍ في شعر الفرزدق وهو قوله:

وأني سَـــفيهُ النـــارِ للمبَتغـــى القِـــرَى   وأني حَلـــيمُ الكَلـــبِ للضـــيفَ يطُـــرقُ

كان الجاحظ يكثر التعجب والاستحسان لقوله: «سفيه النار»، و«حليم الكلب»[2] .

❁ ❁ ❁

(1) سرح العيون ص 58.
(2) ينظر سرح العيون ص 394.

باب
في نقده للشعر وتفسيره كلام الشعراء ورأيه في بعضهم

قال أبو دلف هاشم بن محمد الخُزاعي: تذاكروا يوماً شعر أبي العتاهية بحضرة الجاحظ، إلى أن جرى ذكر أرجُوزتهِ المزدوجة التي سماها «ذات الأمثال» فأخذ بعضُ من حضرَ يُنشدها حتى أتى على قوله:

يالشبابِ المرَح التصابي   روائحُ الجنَّة في الشَّبابِ

فقال الجاحظ للمنشد: قِفْ، ثم قال:أنظروا إلى قوله:

* روائحُ الجنَّة في الشَّبابِ *

فإن له معنى كمعنى الطَّرب الذي لا يقدر على معرفته إلاَّ القلوب، وتعجز عن ترجمته الألسنةُ إلاَّ بعد التطويل وإدامة التفكير، وخير المعاني ما كان القلب إلى قبوله أسرَعَ من اللسانِ إلى وصفه[1].

قلت: هي أرجوزة طويلة، من إبداعات أبي العتاهية، تحوي على أربعة آلاف مثل.

(1) الأغاني (4 / 40).

قول الجاحظ في العَّباس بن الأحنـف:

عن يموت بن المزرع قال: سمعت خالي [الجاحظ] يقول: لولا أنَّ العَّباس بن الأحنف أحذق الناسِ وأشعرهُم، وأوسعهم كلاماً وخاطراً، ما قدر أن يكثر شعره في مذهب واحد لا يجاوزه، لأنه لا يهجو، ولا يمدح، ولا يتكسب ولا يتصرف، وما نعلم شاعراً لزم فناً واحداً لزومه، فأحسن فيه وأكثر(1).

وقال الجاحظ: سقى الله قبر الأحنف حيث يقول: ألزم الصحة يلزمك العمل(2).

قول الجاحظ في الشعر القديم والمحدث:

قال الجاحظ: نظرنا في الشعر القديم والمحدث فوجدنا المعاني تقلب وبعض يأخذ من بعض، وقل معنى من معاني الشعر القديم تفَّرد بإبداعه شاعرُ إلاَّ ورأيتَ من الشعراء من زَاحمهُ فيه، وأشتق منه شيئاً، غير عنترة يصف ذُباباً خَلاَ في دار عبلة، وذلك قوله:

وخَلاَ الذُبابُ بهَا فَليسَ بَبارَحٍ   غَرِداً كفَعلِ الشَاربِ المتُرنمِ
هَزِجاً يُحك ذراعه بَذراِعه   فَعِلَ المكُبَّ على الزَنادِ الأجَذمِ

وقول أبي نواس من المُحدثين:

قرارتها كسرى وفي جنباتها   مَهاً تدريها بالقسِيَّ الفوارسُ

(1) الأغاني (8 / 368).
(2) محاضرات الأدباء (1 / 594).

وقـالَ يَصفُ كَرماً:

لنـا هجَمـةٌ لا يـدَري الـذِئبُ سـخِلهَا ولا رَاعهَـا رَزُ الفحالـة والخطـرُ

قال الجاحظ: كِنىَ عن الكرم بالإبل، وهـو يعنـي الـدنان، راعها رزُ الفحالـة: صَـوتُ الفحالة[1].

قال الجاحظ: قال الشاعر:

ألم تـرَ أن الزُبـدْ بـالتمرِ طـَيبُ وأن الـحُبارَي خَالـهُ الكـروان

قال عمرو بن بحر الجاحظ: العامة لا تشك بأن الكروان ابن الحُباَري[2].

أنسب العرب عند الجاحظ:

روى أحمد بن فارس المنبجي، عن عبيد اللـه بن يحيى بن البحتري، قال: حـدثنا أبي عن جماعة من أهل العلم والأدب، منهم يُموتَ بن المزّرع قـال: قلـت لأبي عـثمان الجـاحظ: من أنسب العرب؟ فقال الذي يقول:

عَجِلـتَ إلى فضَـلِ الخـمِارَ فأثـَّرتَ عَذنَاتـهُ بمَواضِـعِ التقَبيـلِ[3]

قلت: والقصيدة للبحتري.

قول الجاحظ في أم المراثي:

قيل لعمرو بن بحر الجاحظ: إن الأصمعي، كان يُسميَّ هذا الشعر أم المراثي.

(1) الأغاني (25 /32 / 33).
(2) بهجة المجالس (3 / 77).
(3) أمالي المرتضى (2 / 40).

فقال الجاحظ: لم يسمع الأصمعي:

أيَّ القلـــوبِ علَـــيكمُ ينصـــدِعُ   وأيَّ نـــومٍ علَـــيكمُ لـــيِسَ يمتِنـــعُ[1]

قلت: والقصيدة التي تسمى أم المراثي هي التي أولها:

لعَمــري ومــا دهــري بتــأبين هالــكٍ   ولا جـــــزَعٍ مــــمَا أَلَمَّ فأوجَعــــا

وهي لمتمم بن نويرة يرثي أخاه مالكاً.

قول الجاحظ في الشعر المجهول:

قال الجاحظ: ما ترك الناس شعراً مجهول لقائل، قيل في ليلى إلاَّ نسبوه المجنـون، ولا شعراً هذه سبيلهُ قيل لبُنى إلاَّ نسبوهُ إلى قيس بن ذَرِيح[2].

قول الجاحظ في الشاعر بشار بن بــرد:

قال الجاحظ في كتابه «البيان والتبيين» وقد ذكره: يعني بشار بـن بـرد ـ كـان بشـار شاعر خطيباً منثور ومزدوج، وسجع، ورسائل، وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختـراع المفُتنين في الشعر، القائلين في أكثر أجناسه، وضروبه، قال الشعر في حياة جرير، وتعـرض لـه، وحُكِي عنه أنه قال: هجوت جيراً، فأعرض عني، ولو هجاني لكنت أشعر الناس[3].

قلت: وفي شعر بشار ما هو قبيح، وهو متهم في دينه، وكان يتعاط الخمر، ويصاحب أهل الفسـق والمجـون، ولـه مـع الإمـام الشـيخ الحسـن الـبصري موقـف، ذكرنـاه في كتابنـا **«الزخرف القصري في مناقب الحسن البصري»**.

(1) العقد الفريد (3 / 209).
(2) الأغاني (2 / 10).
(3) الأغاني (3 / 137).

قول الجاحظ في مراتب الشعراء:

قال الجاحظ: يُقالُ للمجيد: فحل، ولمن دون: مفلق، ثم شاعر ثم شويعر ثم شعرور[1].

قوله في المطبوعون على الشعر:

يقول الجاحظ في المطبوعون على الشعر من المولدين: بشار العقيلي والسيد الحميري، وأبو العتاهية، وابن أبي عيينة[2].

قول الجاحظ في بيت للأعشى:

قال الجاحظ: كان العلماء يستجيدون بيت للأعشى:

لعُمِري لَقِدْ لاحَتْ عُيونُ كَثَيرةٌ   إلِىَ ضوءِ نارٍ في يفَاعُ تُحَّرقُ
تُشبُ لمقرورَينٍ يصطليَانهَا   وبَاتَ على النَارِ النَّدي والمحُلقُ

حتى قال الحطئية:

متى تأتِهِ تِعَشو إلى ضَوءِ نَارهِ   تَجدِ خَيرَ نَارِ عِندَهاَ خَيْرُ مُوقدِ

فحينئذٍ فضلوا هذا، وصار لحسنه ناسخاً لبيت الأعشى[3].

تفسيره معنى كلام «يَا ماصَّ بظَرَ أمهِ»:

وقال الجاحظ: معنى قول القائل «يا ماصَّ بظرَ أمهِ» يعني: آكلاً مهر أمه من غير أبيه.

---

(1) محاضرات الأدباء (1 / 194).
(2) كتاب الأوراق لأبي بكر الصولي (12/1).
(3) محاضرات الأدباء (722/1).

قول الجاحظ في اختلاف الكميت والطرماح:

قال الجاحظ: لم يُرَ أعجب حالاً من الكميت والطرماح، فإن الكميت كان عدنانياً شيعياً يتعصب لأهل الكوفة والطرماح كان قحطانيا خارجياً يتعصب لأهل الشام، وكان بينهما من المخالطة ما لم يكن بين اثنَين قط، ولم تجر بينهما جفوة ولا قطيعة ولا اعتراض، وقيل لهما: كيف اتفقتما مع الخلاف الذي بينكما؟ فقالا: اتفقنا على بعض العامة. ووصفهما جعفر المصري فقال:

فنحَنُ مِن وَّدِ وحُبّ كمَا ... كَانَ كَميتُ والطَرماحُ[1]

تعليق الجاحظ على أبياتٍ لأبي نواس:

كان الجاحظ يقول: لا أعَرفُ من كلام الشعراء كلاماً هو ارفع، ولا أحَسنُ من قول أبي نواس:

أيةُ نَارٍ قَدح القادِحُ ... وأيَّ جِدّ بلَغَ المازِحُ
لله دُر الشّيب مِن واعِظ ... وناصحٍ لو حَذر النَاصحُ
يأبى الفتى إلاَّ إتباع الهوى ... ومنهجُ الحِقّ له واضحُ
فاعمد بعينيك إلى نسوة ... مهُوُرهنَّ العَملُ الصالحُ
لا يجتلي العِذراء في خَدرِها ... إلاَّ امُرؤ ميَزانهُ راجحُ
من اتقى الله فَذاكَ الذَي ... سِيقَ إليَهِ المتَجرُ الرابحُ
فاغدُ فما في الدَينِ أغُلوطةُ ... ورُح بمَا أنتَ لهُ رائحُ[2]

---

(1) محاضرات الأدباء (20/3).
(2) الأغاني (25 / 167).

قلت: وللجاحظ تقريظ في أبي نواس وشعره:قال الجاحظ: أبو نواس حلّ من الطبع بحيث يصل شعره إلى القلب بغير إذن.

وقال أيضاً: ما رأيتُ رجلاً أعلم باللغة ولا أفصح لهجة من أبي نواس(1).

كلام الجاحظ في الاسم المظلوم:

قال أبي الفضل جمال الدين بن منظور: كان الجاحظ يزعم أن عمراً أرشَقُ الأسماء وأخفها وأظرفها وأسهلها مخرجاً وكان يسميه الاسم المظلوم، لإلزامهم به الواو التي ليس منه، ولا فيه دليل عليها ولا إشارة إليها، ويزعم أن هذا الاسم لم يقع في الجاهلية إلاَّ على فارس مذكور، أو ملك مشهور، أو رئيس مُطاع، أو سَيدُ متبوعُ، ويعد جماعة من ذلك، وأنشد على ذلك لأبي نواس يهجو أسجع السلمي:

أيها المدعي ولاءُ سَليمٍ لستَ منها ولا قُلامة ظُفرِ
أنت فيها مُستلَحقُ مثل واو ألحقَت في الكتاب بعَمرو(2)

الجاحظ يصف بلادة كيسان مستملي أبو عبيدة:

كان كيسان يوصف بالبلادة والغفلة قال عنه الجاحظ: كان يكتب غير ما يسمع ويستقني غير ما يكتب، ويقرأ غير ما يستقني، ويُملي غير ما يقرأ، أمليت عليه يوماً:

عَجِبتُ لمعشرٍ عدلوا بمعتمرِ أبا عُمر

فكتب أبا بشر، واقرأ أبا حفص، واستقنى أبا زيد(3).

---

(1) الأغاني (25 / 5).
(2) الأغاني (25 /148).
(3) زهر الآداب وثمر اللباب (1 / 191).

أجمع الناس على أربع:

قال الجاحظ: أجمع الناس على أربع: أنه ليس في الدنيا أثقل من أعمى، ولا أبغض من أعور، ولا أخف روحاً من أحولَ، ولا أقود من أحدب[1].

تعليق الجاحظ على كلام خالد بن صفوان:

دخل خالد بن صفوان على أبي العباس السفاح وعنده أخواله من بني الحارث بن كعب. فقال: ما تقول في أخوالي؟ فقال: هم هامة الشرف وعرنين الكرم، وغرس الجود، إنَّ فيهم لخصالاً ما أجتمعت في غيرهم من قومهم، إنهم لأطولهم أمماً، وأكرمهم شيماً وأطيبهم طعماً، وأوفاهم ذمماً، وأبعدهم همماً، الجمرة في الحرب، والرفد في الجَدب، والرأس في كل خطب، وغيرهم بمنزلة العجب. فقال: وضعت يا أبا صفوان فأحسنت فزاد أخواله في الفخر فغضب أبو العباس لأعمامه، فقال: أفخريا يا خالد؟ قال: أعلى أخوال أمير المؤمنين ! قال: وأنت من أعمامه؟ قال: كيف أفاخر قوماً هم بيت ناسج بُرد، وسَائس قِردِ ودابغ جْلد دلَّ عليهم هدُهد وعرَقهَم جُرذ، وملكتم أم ولد فأشرق وجَهُ أبي العباس.

قال يموت ابن المزرع: سمعت خالي الجاحظ وذكر كلام خالد هذا فقال: واللـه لو فكر في جمع معايبهم واختصار اللفظِ في مثالبهم بعد ذلك المدح المهِذبَ سنةً لكان قليلاً، فكيف على بديهته لم يرض له فكراً[2].

وفي رواية أخرى: فقال الجاحظ وقد بلغه مقاله: لئن يفكر في هذا الكلام وأعده إنه لرواية كبير ولئن حضره حين حرك فماله في العالمين نظير[3].

---

(1) معجم الأدباء (84/16).
(2) زهر الآداب وثمر الألباب (3 / 220).
(3) محاضرات الأدباء (2 /344).

تعليقه على خبر:

يروى أن خالد بن يزيد دخل دار عبد الملك وكان يسحبُ ثيابه، فقام إليه عبد الرحمن بن الضحاك يتلقاه معظماً له، فقال له: بابي أنت وأمي، لـِمَ تطعم الأرض فضول ثيابك؟ فقال: إني اكره أن أكون كما قال الشاعر: ـ وهوَ عليَّ بن عبد العزيز كما جاء في محاضرات الأدباء ـ :

قَصيرُ الثَياب فاحشُ عندَ بيتهِ   وشَّر قُريشٍ مُركَباً

وهذا البيتُ هُجيّ به الضحاك.

قال الجاحظ: لو لم يتكلف ما لا يعنيه لم يسمع هذا الجواب(1).

تعليقه على كلام فيه سجع لأعرابية:

قال الجاحظ: ومن الأسجاع الحسنة: قول الأعرابي حين خاصمت ابنها إلى عامل الماء: أما كان بطني لك وعاء؟ أما كان حجري لك فناء؟ أما كان ثديي لك سقاء(2)؟

تقريظ العتابي:

قال أبو عثمان الجاحظ: كان العتابي ممن جمع له الخطابة والبيان والشعر الجيد والرسائل الفاخرة وعلى ألفاظه وحَدِوه يقول في البديع جميع من يتكلف ذلك من شعراء المولدين كنحو منصور النمري ومسلم بن الوليد الأنصاري

(1) نثر الدر (3 / 40).
(2) نثر الدر (4 / 54).

وأشباههما، وكان العتابي يحتذي حذو بشارٍ في البديع ولم يكن في المولدين أجـود بـديعاً مـن بشار وابن هرمة[1].

كلام الجاحظ في مذهب الأعشى ولبيد:

قال الجاحظ: من العجائـب أن الأعشى كـان في الجاهليـة يعتقـد مـذهب المعتزلـة، فيقول:

اسـتأثرَ اللــه بالوفـاءِ وبالحمـدِ　　　ووَلى المـــــــلاَمة الرجـــــــل

ولبيد يذهب مذهب أهل السنة والجماعة فيقول:

* وبإذن اللـه ريثي وعجل[2] *

(1) زهر الآداب وثمر الألباب (3 / 51).
(2) خاص الخاص للثعالبي ص 101.

باب
في كلام الجاحظ في شتى فنون العلم من أدب ولغة وغيرها

قال قوله فيما ينبغي للكاتب:

الجاحظ:ينبغي للكاتب أن يكون رقيق حواشي اللسان، عذب ينابيع البيان إذا حاور سدد سهم الصَوابَ إلى غَرضَ المعنى لا ُيكلمُ العامة بكلام الخاصة ولا الخاصة بكلام العامة[1].

نهيه عن مجالس الحمقى:

قال الجاحظ: لا تُجالس الحمقى، فإنه يعلق بك من مجالستهم يوماً من الفساد مالا يعلقُ بِكَ مِن مجالسة العُقلاء دهراً من الصلاح، فالفساد أشَدُ التحاماً بالطبائع[2].

قوله فيما يحتاج إليه الخطيب:

قال الجاحظ: يجب أن يفرق بين صدر خطبه النكاح، وخطبة العيد، وخطبة الصلح، وكانوا يمدحون الجهير الصوت ويذمون ضَئيلهُ[3].

(1) معجم الأدباء (16 /87).
(2) محاضرات الأدباء (1 / 21).
(3) محاضرات الأدباء(279/1).

قوله فيما يكره في الخطباء:

قال الجاحظ: ثم اعلم أبقاك الله، أن صاحب التشديق[1]، والتقعير[2] والتقعيب[3] من الخطباء والبلغاء مع سماجة التكلف، وشنعة التزيد أعذر من عيّ يتكلف الخطابة، ومن حصر يتعرض لأهل الاعتياد والدربة. ومدار اللائمة ومستقر المذمة حيث رأيت بلاغةً يخالطها التكلف، وبياناً يمازجه التزيد إلاَّ أن تعاطي الحصر المنقوص، مقام الدرب التام، أقبح من تعاطي البليغ الخطيب، ومن تشادق الأعرابي القح[4].

من أشتهر بالخطابة من الشعراء:

قال أبو عثمان الجاحظ: وفي الخطباء من يكون شاعراً ويكون إذا تحدث أو وصف أو احتج بليغا مفهوماً بيناً.

وربما كان خطيباً فقط، وشاعراً فقط، وبيّن اللسان فقط، ومن الشعراء الخطباء الأبيناء الحكماء قُسُ بن ساعدة الأيادي.

والخطباء كثير والشعراء أكثر منهم، ومن يجمع الخطابة والشعر قليل، ومنهم عمرو بن الأهتم المنقري وهو المكحل، قالوا: كأن شعره في مجالس الملوك حُلُلٌ فشرة[5].

---

(1) التشدق: التكلف في البلاغة.
(2) التقعير: النطق بأقصى الحلق.
(3) التقعيب: تقصير الكلام.
(4) الأعرابي القح: خالص العروبة. ينظر البيان والتبيين (1 / 15).
(5) البيان والتبيين (1/ 38).

منزلة اللفظ من المعنى عند الجاحظ:

قال أبو عثمان الجاحظ: قال بعض جهابذة الألفاظ ونُقاد المعـاني: المعـاني القائمـة في صدور الناس المختلجة في نفوسهم والمتصورة في أذهانهم المتصلة بخـواطرهم والحادثـة عـن فكرهم ومستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجـودة في معنـى معدومـة، لا يعرفُ الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخَليطِهِ، ولا معنى شريكه والمعاون له عـلى أمره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلاَّ بغـيره، وإنمـا يحيـي تلـك المعـاني ذكـرهم لهـا، وأخبارهم عنها، واستعمالهم إياها.

وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهـم، وتجليهـا للعقـل، وتجعـل الخفـي منهـا ظاهراً، والغائب شاهداً، والبعيد قريباً وهي التي تلخص الملتـبس، وتحـل المنعقـد، وتجعـل المهمل مقيداً، والمقيد مطلقاً، والمجهول معروفاً، والوحشي مألوفاً، والعقل موسوماً، والموسوم معلوماً، وعلى قدر وضوح الدلالة، وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقـة المـدخل، يكـون ظهور المعنى.

وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، كانت الإشارة أبين وأنـور، كانـت أنفـع وأنجـع في البيان، والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سـمعت اللــه يمدحـه ويَـدُعوا إليه، ويحثُّ عليه، بذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف العجم.

البيان عند الجاحظ:

قـال الجـاحظ: والبيـان أسـم لكـل شيء كشـف لـك عـن قنـاع المعنـى، وهتـك لـك الحجـب دون الضـمير، حتـى يـقضي السـامع إلى حقيقتـه، ويهجـم عـلى محصـوله،

كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع[1].

منزلة صناعة الكلام:

قال الجاحظ: صناعة الكلام عِلقُ نفيس، وجوهر ثمين، هو الكَنزُ الذي لا يفنى ولا يبلى، والصاحب الذي لا يمل ولا يقلى، وهو العَيارُ على كل صناعة، والزمامُ بكلُ عبارة، والقسطاسُ الذي به يستبين نقصُ كل شي ورُجحانه، والراووف الذي يعرف به صَفاءُ كلَّ شيء وكدره، والذي كلَ عِلم عليهِ عيَال، وهو لكلَّ تحصيل آلةُ ومثال[2].

في مدح العروض وذمها:

وقد مدح الجاحظ العروض وذمّها، فقال في مدحها: العروض ميزان، ومعراض بها يعرف الصحيح من السقيم، والعليل من السليم، وعليها مدار الشعر، و بها يسلم من الأود والكسر.

وقال في ذمها: هو علم مولد، وأدب مستبرد، ومذهب مرفوض، وكلام مجهول، يستنكر العقل بمستفعلن وفعول، من غير فائدة ولا محصول[3].

(1) زهر الآداب وثمر الألباب (1 / 144/143).

(2) زهر الآداب وثمر الألباب (20/4).

(3) زهر الآداب وثمر الألباب(3 /71).

فضل الكتابة:

قال أبو عثمان الجاحظ: ما رأيتُ قوماً أنفذ طريقة في الأدب، من هؤلاء الكُتّاب، فإنهم التمسوا من الألفاظ، ما لم يكن متوعراً وحشياً، ولا ساقطاً سوقياً[1].

وصفه للبلاغة:

ومن كلام الجاحظ يصف البلاغة: ومتى شاكل ـ أبقاك الله ـ اللفظ معناه، وكان لذلك الحال وفقاً ولذلك القدر لفقاً، وخرج من سماجة الاستكراه وسلم من فساد التكلف، كان قمناً بحسن الموقع، وحقيقياً بانتفاع المستمع، وجديراً أن يمنع جانبه من تأول الطاعنين، ويمحى عرضه من اعتراض العائبين، ولا يزال القلوب به معمورة، والصدور به مأهولة ومتى كان اللفظ أيضاً كريماً في نفسه متخيراً من جنسه، وكان سليماً من الفضول بريئاً من التعقيد حُبب إلى النفوس، وأتصل بالأذهان والتحم بالعقول، وهشت له الأسماع، وارتاحت له القلوب، وخف على ألسن الرواة، وشاع في الآفاق ذكره، وعظم في الناس خطره وصار ذلك مادة للعالم الرئيس، ورياضةً للمتعلم الَريضِ ومن أعاره من معرفته نصيباً، وأفرغ عليه من محبته ذنوباً، حبب إليه المعاني وسلس له بطعام اللفظ، وكان قد أغنى المستمع عن كد التكلف، وأراح قارئ الكتاب من علاج التفهم[2].

كلام الجاحظ في بعض أعلام الأدب:

قال الجاحظ في بعض أعلام الأدب، موصفاً إياهم بالندماء، متهمين في دينهم: كان والبة ابن الحباب، ومطيع بن إياس، ومنقذ بن عبدالرحمن الهلالي،

(1) العقد الفريد (4 /28).
(2) معجم الأدباء (94 / 95).

وحفص بن أبي وردة، وابن المقفع، ويونس بن أبي فروة، وحماد عجرد، وعليّ بن الخليل، وحماد بن أبي ليلى الراوية، وابن الزبرقان، وعمارة بن حمزة، ويزيد بن الفيض، وجميل بن محفوظ، وبشار المرُعث، وأبان اللاحقي ندماء، يجتمعون على الشراب وقول الشعر، ولا يكادون يفترقون، ويهجو بعضهم بعضاً، هزلاً وعمداً، وكلهم متُهم في دينه(1).

العشق والحب، والسرف، والبخل، والجبن، والهوج عند الجاحظ:

وحَدَّث المبُرَّدُ قال: سَمعتُ الجاحظ يقول: كلُ عشقٍ يسمى حُباً، وَليسَ كَلُ حُبٍ يسمى عشقاً، لأن العِشقَ اسم لمـَا فَضلَ عَنْ المحبة، كَما أن السَرفَ اسمُ لمـَا جاوز الجُود، والبُخلُ اسمُ لما قَصرَ عَنِ الاقتصاد، والجُبنَ اسم لمـَا فَضلَ عَن شدةِ الاحتراس، والهوج اسم لمـَا فَضلَ عنِ الشجاعة(2).

فيما يجب للرجل أن يكـــون:

عن يموت بن المزرع، عن خاله الجاحظ، قال: يجب للرجل أن يكون سخياً، لا يبلغ التبذير، شجاعاً لا يبلغ الهوج، محترساً لا يبلغ الجبن، ماضياً لا يبلغ القحة، قوالاً لا يبلغ الهذر، صموتاً لا يبلغ العي، حليماً لا يبلغ الذل منتصراً لا يبلغ الظلم وقوراً لا يبلغ البلادة، ناقداً لا يبلغ الطيش، ثم وجدنا رسول الله ﷺ قد جمع ذلك في كلمةٍ واحدةٍ وهي قوله:«خير الأمور أوساطها» فعلمنا أنه ﷺ قد أوتي جوامع الكلم، وعلم فصل الخطاب(3).

---

(1) الأغاني (18 /106).
(2) معجم الأدباء (16 /88).
(3) معجم الأدباء (16 / 110).

قـول حسن للجاحــظ:

قال أبو زيدٍ البلخـي: مـا أحســن مـا قـال الجـاحظ: عقـل المنشـئ مشـغول، وعقـل المتصفح فارغ[1].

قوله في أحسن ما قيل في المشـورة:

قال الجاحظ: أحسن ما قيل في المشورة قول بشار:

إذا بلـــغ الـــرأي المشـــورة فاســـتعن   بحـــزم نصـــيح أو نصـــيحة حـــازم

ولا تجعــل الشــورى عليــك غضاضــة   فـــإن الخـــوافي قـــوة للقـــوادم[2]

قول الجاحظ في العقل:

قال الجاحظ: العقل اسم يقع على المعرفـة بالصَّـواب والخطـأ، وإيثـاره إذا اقترنـا في زمان، وكان العلم علةً للعمل وقيداً له، فإذا دعا الرجل علمه بالمحاسن إلى العمل بها، ونهاه علمه بالمساوئ عن العمل بها صار قيداً لعمله، وكان كالعقال لما أستحسنه، فإذا عقله عليـه وحبسه كما يحُبس الجمل، قالوا:هذا عاقل[3].

فسحة العقل عند الجاحظ:

قال الجاحظ: لا يزال المرء في فسحة من عقله، ما لم يقل شعراً أو يصنف كتاباً[4].

(1) معجم الأدباء (16 /111).
(2) محاضرات الأدباء (1 / 53).
(3) سرح العيون لابن نباته المصري ص 26.
(4) محاضرات الأدباء (1 / 83).

ليس كل معلم تطلق عليه الحماقـة:

قال الجاحظ: المعلمون على ضربين: منهم مـن ارتفعـوا عـن أولاد العامـة إلى تعلـيم أولاد الملوك، والمرشحين للخلافة كالكسائي، وقطرب، وحماد، وعبـد الصـمد، فهـؤلاء لا تجـوز عليهم الحماقة، وإن لكل قومٍ حاشيةٍ وجهالاً وسفلا(1).

قليل الموعظة مع نشاط الموعوظ:

نقل عن أحمد بن صدقه قال: سـمعت الجـاحظ يقـول: قليـل الموعظـة مـع نشـاط الموعوظ خَيرُ من كثير وافق من الأسماع نبوةً ومن القلَوبِ ملالة(2).

خمس يضنين:

ونقل عن الحسن بن علي بن زفر قال: سمعت عمرو بن بحر الجاحظ قـال: خمـس يضنين: سراج لا يضيء، ورسول بطيء، وطعام ينتظر به، وإبريق يسيل، وبيت يكِفُ(3).

وصفه اللسان:

ونقـل عـن أبـا سـعيد الجنـد يسـابوري قـال: سـمعتُ الجـاحظ يصـف اللسـان قـال: هـو أداة يظهـر بهـا البيـان، وشـاهد يعـبر عـن الضـمير، وحـاكم يفصـل الخطـاب، ونـاطق يـرد بـه الجـواب، وشـافع تـدرك بـه الحاجـة وواصـف تعـرف بـه الأشـياء، وواعـظ ينهـى عـن القبـيح، ومعـزٌّ يـرد الأحـزان، ومعتـذر يرفـع الضـغينة، وملـة يوثـق

(1) محاضرات الأدباء (1 / 113).
(2) تاريخ دمشق (45 / 435).
(3) تاريخ دمشق (45/ 435).

الأسماع، وزارع يحدث المودة، وحاصد يستأصل العداوة وشاكر يستوجب المزيد، ومادح يستحق الزلفة، ومؤنس يذهب بالوحشة[1].

قول الجاحظ في نفع الكتب:

ذكر الجاحظ الكتب فقال: نعم الذُخرُ والعُدةُ، والجليس والقَعدة، والمشتغل والحرفة، ونعم القرين والدخيل، والوزير والنزيل، والكتاب هو الجليس الذي لا يطريك، والصديق الذي لا يغريك، يطيل إمتاعك ويشحذ طباعك[2].

كلام الجاحظ في مدح من يصدق في قوله:

قال الجاحظ: أخبرني فلان، وهو الكذب لا يأخذان في طريقٍ، وكان يقشعر من الكذب.

قوله فيمن قابل الإساءة بالإحسان:

قال الجاحظ: من قابل الإساءة بالإحسان فقد خالف الرب في تدبيره، وظن أن رحمته فوق رحمة الله تعالى، فالناس لا يصلحون، إلا على الثواب والعقاب.

الحسد وضرره على صاحبه:

قال الجاحظ: من العدل المحض والإنصاف الصريح أن تحط عن الحاسد نصف عقابه، لأن ألم جسمه قد كفاك مؤنة شطر غيظك عليه[3].

---

(1) تاريخ دمشق (45/ 435)

(2) محاضرات الأدباء (1 / 238).

(3) محاضرات الأدباء (1/ 245 - 498 - 520).

قولـه في التلون:

قال الجاحظ: التلون أن يكون سرعة رجوع المرء عـن الصـواب كسرعـة رجوعـه عـن الخطأ[1].

حال ينبئ بالمقال:

قال الجاحظ: نحن نزخرف باللسان والناس يقضون بالعيان، وفي أمرنا أثر ينطق عنـا ويتكلم إذا سكتنا[2].

شكر الشكــر:

قال الجاحظ: شرَّ الشكر ثناء المواجهة لـك المسرف في مـدحك، وخـيره ثنـاء الغائـب عنك المقتصد في وصفك[3].

النصرانية أخبث من اليهودية:

قال الجاحظ: النصـرانية أخبث من اليهودية، وإن كانت أنظف ثوباً ومهنة، لأنها قلف، ولا تغتسل من جنابة، وتأكل لحم الخنزير ولا تطهر نساؤهم من جنابة وحيض ونفـاس، ويغشـاها في الطمث، ولا يحصل قولهم في المسيح، ولما جعلوا ربهم بشراً تواجـدوا بـه حتـى عـاد حـبهم عشـقاً للمشاكلة بين الطبائع، وما ظنك بشوق من يطمع في مجالسة ربـه ومحادثـة خالقـه، تعـالى اللــه عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

---

(1) محاضرات الأدباء (1 / 581).

(2) محاضرات الأدباء(2/ 13).

(3) محاضرات الأدباء(2 / 22).

بقايا بني إسرائيل:

قال الجاحظ: ومتى أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى بقاياهم، هل لهم حكمة أو مثل أو شعر، ثم أنظر إلى أولادهم مع طول لبثهم معنا، هل تغيرت بذلك أخلاقهم، وشمائلهم وأحلامهم وآدابهم، وفطنهم ثم من غباوتهم ما حكى الله تعالى عنهم في قولهم: ﴿ اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ﴾ [الأعراف: 138] وكقولهم: ﴿**أرنا الله جهرة** ﴾ [النساء: 153] وكقولهم: ﴿ **فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون**﴾ [المائدة: 24] وآياتهم انقطعت بموتهم وعرفها من بعدهم بأخبار سلفهم، وجعل من معجزات نبينا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأشرك الله تعالى فيه الخلف والسلف، وجعله باقياً علي مرور الأزمان، وبعد الأحوال(1).

بخلا يسرفون في الإنفاق على البناء:

قال الجاحظ: رأيت بخلاء في غاية البخل يسرفون في الإنفاق على البناء. وسألت بعض البخلاء، وقد أنفق مالاً على دارٍ: إي شيءٍ أصعب مما مرَّ عليك في بنائها.فقال: معاملة العمال. وكنت أحسب أن يقول: إخراج الدراهم(2).

قلت: هذا الصنف من البخلاء، قد يبنون بدارهم غيرهم، ولهذا لا يبالون بكم أنفقوا في البناء، والله أعلم.

من توليد الروافض:

وروي أنه وقع بين حيين منازعة فخرجت [أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها]، وقالت: ائتوني ببغلة أركبها وأصلح بينهما.

(1) محاضرات الأدباء(4 / 142 – 161).
(2) محاضرات الأدباء (4 / 538).

فقال ابن أبي عتيق: ما غسلنا رؤوسنا من الجمل، فكيف توقيعنا بهم يوم البغلة.

قال الجاحظ: وهذا الحديث من توليد الروافض، فأما عائشة رضي اللـه عنها فكان أمرها أنفذ من أن تحتاج أن تركب، وأي شيءٍ يتفاقم حتى تحتاج عائشة فيه إلى الركوب، ثم لا يعرف خبره.

قلت: هذا قول الجاحظ في هذه الرواية، ولم نقرأ لأحد من الأئمة كالذهبي أو غيره علق عليها، فابن أبي عتيق له أخبار مع أم المؤمنين عائشة رضي اللـه عنها فيها ظرف، ومعروف عنه ذلك قد ذكرته في كتابنا «**السيرة المعطرة في مناقب أم المؤمنين عائشة**».

ويمكن القول أن ابن أبي عتيق في هذه الرواية قصد إلى التفكه كعادته مع خالته أم المؤمنين وليس تعيير أو تنذر بها.

وعلى كل حال فأم المؤمنين كانت عظيمة الشأن الكل يعظمها رضي اللـه عنها وقد سقتُ لها من الأخبار ما هو كافٍ إن شاء اللـه تعالى في حقها، والجاحظ كان شديد العداوة للروافض وله رسالة في ذلك.

الفرس العربي:

قال الجاحظ: لم تكن أمة قط أشد عجباً بالخيل ولا أعلم بها ولا أشد إيثاراً لها من العرب، ولذلك أضيفت إليهم بكل لسان، ونسبت إليهم بكل مكان، فقالوا: فرس عربي ولم يقولوا: هندي، ولا رومي، ولا فارسي[1].

(1) محاضرات الأدباء (4 / 625).

تعقيب الجاحظ على كلام علي بن أبي طالب ﷺ:

قال الإمام عليّ بن أبي طالب ﷺ: الدنيا بالأموال، والآخرة بالأعمال، لا تخَافنَّ إلاَّ ذنبك، ولا ترجون إلاَّ ربك، وجهوا آمالكم إلى من تحبه قلوبكم، الناس من خوف الذل في ذل، من أيقن بالخُلف جاد بالعطية بقية السفِ أنمى عدداً، وأنجب ولداً.

فقال أبو عثمان الجاحظ: وقد ذكر هذه الكلمة في كتاب البيان، فلِمَ لم نقف من هذا الكتاب إلاَّ على هذه الكلمة لوجدناها شافية كافية، ومجزية مغنية، بل كثيرة، ومعناه ظاهراً في لفظه، وكأن الله قد ألبسه من ثياب الجلالة، وغشاه من نور الحكمة علي حسب نية صاحبه، وتقوى قائله، فإذا كان المعنى شريف، واللفظ بليغاً وكان صحيح الطبع، بعيداً عن الاستكراه منزهاً عن الاختلال، مصُوناً عن التكلف، صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة، ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة ونفذت من قائلها على هذه الصفة، أصحبها الله عز وجل من التوفيق، ومنحها من التأييد، ما لم يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة، ولا يذهل عن فهمها معه عقول الجهلة[1].

فصل لأبي عثمان الجاحظ في ذكر قريش وبني هاشم:

قال الجاحظ: قد علم الناس كيف كر قريش وسخاؤها، وكيف عقولها ودهاؤها وكيف رأيها وذكاؤها وكيف سياستها وتدبيرها وكيف إيجازها وتحبيرها وكيف رجاحة أحلامها إذا خف الحليم، وحدة أذهانها إذا كل الحديد،

(1) زهر الآداب وثمر الألباب (1 / 72).

وكيف صبرها عند اللقاء وثباتها في اللأواء، وكيف وفاؤها إذا أستحسن الغدر، وكيف جودها إذا حُبَّ المال، وكيف ذكرها لأحاديث غدٍ، وقلة صدودها على جهة القصد، وكيف أقرارها بالحق، وصبرها عليه، وكيف وصفها له ودعاؤها إليه وكيف سماحة أخلاقها، وصونها لأعراقها، وكيف وصلوا قديمهم بحديثهم، وطريفهم بتليدهم، وكيف أشبه علانيتهم سرهم وقولهم فعلهم. وهل سلامة صدر أحدهم إلاَّ على قدر بُعد غوره؟ وهل غفلته إلا في وزن صدق ظنه، وهل ظنه إلا كيقين غيره؟ بل قد علم الناس كيف جمالها وقوامها، وكيف نماؤها وبهاؤها، وكيف سروها ونجابتها، وكيف بيانها وجهارتها، وكيف تفكيرها وبداهتها، فالعرب كالبدن وقريش روحها، وقريش روح وبنو هاشم سرها ولبها، وموضع غاية الدين والدنيا منها، وبنو هاشم ملح الأرض، وزينة الدنيا، وحلى العالم، والسنام الأضخم، والكاهل الأعظم، ولباب كل جوهر كريم، وسير كل عنصر شريف، والطينة البيضاء، والمغرس المبارك، والنصاب الوثيق، ومعدن الفهم، وينبوع العلم، وثهلان ذو الهضاب في الحلم، والسيف الحسام في العزم، مع الأناة والحزم، والصفح عن الجرم، والقصد عند المعرفة، والعفو بعد المقدرة، وهم الأنف المقدم، والسنام الأكرم، وكالماء الذي لا ينجسه شيء، وكالشمس التي لا تخفى بكل مكان، وكالذهب الذي لا يعرف بالنقصان، وكالنجم للحيران، والبارد للضمآن، ومنهم الثقلان، والشهيدان والأطيبان، والسبطان[1]، وأسد الله[2]، وذو الجناحين[3]، وذو قرنيها، وسيد

(1) السبطان: هما الحسن والحسين ﷺ.
(2) أسد الله: حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ.
(3) وذو الجناحين: جعفر بن أبي طالب شهيد يوم مؤتة.

الوادي، وساقي الحجيج، وحليم البطحاء، والبحر[1]، والحبر، والأنصار أنصارهم، والمهجرين من هاجر إليهم ومعهم، والصديق من صدقهم[2]، والفاروق[3] من فرق بين الحق والباطل فيهم، والحواري حواريهم، وذو الشهادتين لأنه شهد لهم، ولا خير إلا لهم أو فيهم أو معهم، أو يضاف إليهم، وكيف لا يكونون كذلك ومنهم رسول رُب العالمين، وإمام الأولين والآخرين، ونجيب المرسلين، وخاتم النبيين، الذي لم يتم لنبي نبوة إلاَّ بعد التصَّديق به، والبشارة بمحبته، الذي عم برسالته ما بين الخافقين، وأظهره الله علي الدين كله ولو كره المشركون[4]؟

إياس بن معاوية والأطناب:

كان أبو وائلة إياس بن معاوية على تقدمه في البلاغة، وفضل عقله وعلمه بالإكثار معيباً، وإلى التطويل منسوباً، وقال له عبد الله بن شبرمة: أنا وأنت لا نتفق، أنت لا تشتهي أن تسكت، وأنا لا أشتهي أن أسمع. وقيل له: ما فيك عيب إلاَّ كثرة كلامك.قال: أتسمعون صواباً أم خطأ؟ قالوا: بل صواباً، قال: فالزيادة في الخير خير.

قال أبو الحسن الدهماني غفر الله له ولوالديه: لطالما تسمعون قولي صواباً فلا بأس في التطويل، يبدوا هذا رأيه. أم الجاحظ فله رأياً آخر، فيرد عليه أبو

(1) الحبر: هو عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.
(2) يعني أبو بكر الصديق رضي الله عنه.
(3) الفاروق: عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
(4) زهر الآداب وثمر الألباب (1 / 87 – 88).

عثمان: وليس كما قال، بل للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن مقدار الاحتمال، ودعا إلى الاستثقال والكلال،فذلك هو الفضال والهذر والخطل والإسهاب الذي سمعت الخطباء يعيبونه[1].

قلت: كذا الجاحظ يقول، بل أنه يكره الأطناب في الكلام، من خطبة أو موعظة، بل أنه يكره التكلف أيضاً. وله في ذلك كلام في البيان والتبيين.

ما ينبغي للفتى أن يكون:

قال أبو عثمان الجاحظ: لا ينبغي للفتى أن يكون مكحلاً، ولا مقبباً، ولا مكوكباً، ولا شكامداً، ولاحرامداً، ولا تقداماً، ثم فسره فقال: أما المكحل، فالذي يتعرق العظم حتى يدعه كأنه مكحلة عاج، والمقبب الذي يركب اللحم بين يديه حتى يجعله كأنه قبة، والموكب، الذي يبصق في الطست وينخم فيها حتى يصير بصاقه كأنه الكواكب في الطست.

والحرامد الذي يأتي في وقت الغداء والعشاء فيقول: ما تأكلون؟ فيقولون من بغضه: سماً. فيدخل يده ويقول: في حِرِ أم العيش بعدكم.

والشكامد الذي يتبع اللقمة بأخرى قبل أن يسقيها فيخنق، كأنه ديك قد أبتلع فأره.

والتقامد الذي يضع الطعام بين يديه ويأكل من بين يدي غيره[2].

(1) زهر الآداب وثمر الألباب (1 / 195).

(2) العقد الفريد (2 / 269).

الجاحظ وشماتة الأعـداء:

قال الجاحظ: ما رأيت سناناً أنفذ من شماتة الأعداء[1].

المفاضلة بين الصمت والكلام:

قال الجاحظ: كيف يكون الصمت أنفع من الكـلام، ونفعـه لا يكـاد يجـاوز صـاحبه، ونفع الكلام يعم ويخص، والرواة لم تروِ سكوت الصامتين، كما روت كلام النـاطقين، فبـالكلام أرسل الـلـه تعالى أنبياءه لا بالصمت، ومواضـع الصـمت المحمـودة قليلـة، ومـواطن الكـلام المحمودة كثيرة، وبطول الصمت يفسد البيان، وكان يقال: محادثة الرجال تلقيح لألبابها[2].

أنشد الناس وأشعرهم عند الجاحظ:

قيل للجاحظ: من أنشد الناس وأشعرهم؟ قال: الذي يقول: وأنشد هذه الأبيات:

كـــأن ثيابـــه أطلعـــن   مــــن أزراه قمـــــراً[3]

قلت: والبيت لأبي نواس.

الُبخل والجُبـــنُ:

قال أبو عثمان الجاحظ: البُخل والجُـبنُ غريزةٌ واحدة، يجمعهما سوء الظـن بالـلــه. والبخل يهدم مباني الشرف[4].

---

(1) المستظرف (1 / 219).
(2) زهر الآداب وثمر الألباب (3 / 114).
(3) زهر الآداب وثمر الألباب(3 / 202).
(4) زهر الآداب وثمر الألباب (4 / 194).

قال أبو الحسن الدهماني غفر اللــه لـه ولوالديـه: يقـال للسـخي، سـخي بعطائـه، شريف في كرمه، والبُخلُ هادم لهما، نعوذ باللـه من البخل، وسوء الكبر.

الحيوانات عند الجاحظ:

قال الجاحظ وذكر الحيوانات: سبحان الذي جعل بعضها عليك عادياً، وبعضـها لـك غادياً.

وصفه للكتاب:

قال الجاحظ في وصف الكتاب: وعاء مليء علماً، وظرف حشي ظرفـاً، إن شـئت كـان أعيى من باقل، وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل، ومن لك ببستان يحمل في كـم روضـة تقلب في حجرٍ ينطق عن الموتى. ويترجم كلام الأحياء(1).

حديث الأعراب العقلاء:

قال الجاحظ: ليس في الأرض كلام هو أمنع ولا أنفع، ولا آنق، ولا ألذ في الأسـماع، ولا أشد اتصالاً بالعقول السليمة، ولا أفتق للسان، ولا أجـود تقويمـاً للبيـان، مـن طـول اسـتماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء(2).

قلت: تلقف الجاحظ اللغة الفصـيحة مـن الأعـراب، وكـان يجالسـهم ويأخـذ عـنهم البيان والفصاحة.

(1) خاص الخاص للثعالبي ص 9.
(2) زهر الآداب وثمر الألباب (2 / 134).

تثمير المــال عند الجاحـظ:

قال أبو عثمان الجاحظ: اعلم أن تثمير المال آلة المكارم، وعون على الـدين، وتـأليف للإخوان وأن من فقد المال قلت الرغبة إليه، والرهبة منـه، ومـن لم يكـن بموضـع رغبـة، ولا رهبة استهان الناس به، فأجهد جهدك كله في أن تكون القلوب معلقة منك، برغبة أو برهبة، في دينٍ أو دنيا[1].

إذا رأى الأعرابي موضعٍ منتفخ:

قال عمرو بن بحـر:إذا نظـر الأعـرابي إلى موضـعٍ منـتفخٍ في أرضٍ مسـتوية، فـإذا رآه يتصدع في تهيّل، وكأن تفتحه مستوياً، علم أنها كمـأة، وأن خلط في التصـدع والحركـة، علـم أنها دابة فأتقى مكانها[2].

تماسيح نهر مهــران:

قال الجاحظ: إن تماسيح نهر مهران أصـغر حجـماً، مـن تماسـيح النيـل، وأقـل ضرراً، وذكر أنه يوجد في هذا النهر سبائك الذهب[3].

عيوب البصرة عند الجاحظ:

قال الجاحظ: من عيوب البصرة اختلاف هوائها في يوم واحد، فأنهم يلبسون القُمصُ مرة والمبطنات مرة، لاختلاف جواهر الساعات ومن ظريف ما قيل في اختلاف هـواء الـبصرة قول ابن لنكك:

(1) العقد الفريد (2 / 319).

(2) بهجة المجالس لابن عبد البر (422/1).

(3) آثار البلاد وأخبار العباد ص 125.

نحـــن بـــالبصرة في لـــون مـــن العـــيش طريـــف
نحـــن مـــا هبـــت شمـــال بـــين جنـــات وريـــف
فـــإذا هبـــت جنـــوب فكأنـــــا في كنيـــــف[1]

زكاة التجــار:

قال الجاحظ: أن هؤلاء التجار لم تسقط عنهم زكاة الناس، لأنهم منعوها وتجـردوا فتركـت عليهم، فصارت أموالهم بذلك مستهلكة واللصوص فقراء إليها، فإذا أخذوا أموالهم وإن كـره التجـار أخذها، كان ذلك لهم مباحاً لأن عين المال مستهلكه بالزكاة وهم يستحقون أخذ الزكاة شاء أربـاب الأموال أو كرهوا[2].

(1) آثار البلاد وأخبار العباد ص 185.
(2) الفرج بعد الشدة للتنوخي (1 / 330).

باب
في رسائل وقعت للجاحظ وفصول من كلامه القصار

رسالة الشكر للجاحظ:

قلت: وهذه نسخة رسالةٍ أنشأها الجاحظ اسماها: «رسالة الشكر» قصد بها تقريض وزير المتوكل ـ الفتح بن خاقان ـ وشكر نعمه لديه، مصدراً لها بذكر حقيقة الشكر وبيان مقاصده، وهي[1]: «جُعلتُ فداك، أيدك اللـه وأكرمك، وأعزك، وأتم نعمته عليك وعندك، ليس يكون الشكر ـ أبقاك اللـه ـ تاماً، ومن حد النقصان خارجاً، حتى يستصحب أربع خلال، ويشتمل على أربع خصال أولها: العلم بموقع النعمة من المنعم عليه، بقدر انتفاعه بما يصل إليه من ذلك: من سد خلة، أو مبلغ لذة وعلو في درجة، مع المعرفة بمقدار مصون، أو مفارقة علقٍ ثمين، وكيف لا يكون ذلك؟وقد خول من نعمه بعض ما كان حبيساً على حوادث عدةً، فزاد في نعم غيره بما أنتفض من نعم احتمال ما نهض به من ثقل الشكر.

والخصلة الثانية: الحرية الباعثة على حب المكأفاة واستحسان المجازاة، والشكر من أكبر أبواب الأمانة، وأبعده من أسباب الخيانة، ولن يبلغ أحد في ذلك غاية المجد إلاَّ بمعرفة الطمع، وإلاَّ الحرب سجال بينهما، والظفر مقسوم عليهما.

(1) العقد الفريد (1 / 187).

كذلك حكم الأشياء إذا تساوت في القوة، وتقاربت في بلوغ المدة، وقد زعم ناس أن الشاكر والمنعم لا يستويان، كما أن البادئ بالظلم والمنتصر لا يعتدلان، لأن البادي أخذ ما ليس له، والمنتصر لم يتجاوز حقه الذي هو له، ولأن البادىء لم يكن مهيجاً على الظلم بعلة جناها المنتصر، والمنتصر مهيج على المكأفاة بعلة جناها البادىء، والمثور للطباع المغضب، والمستخف المهيج، أعذر من الساكن الوادع المطمئن. فلذلك قالوا: إن البادىء أظلم، والمنتصر أعذر، وزعموا أن المنعم هو الذي أودع صدر الشاكر المحبة، بأنعامه عليه، وهيجه بذلك على مكافأته لإحسانه إليه، فقد صار المنعم هو الذي دفع للشاكر أداة الشكر، وأعماره آلة الوفاء، فهو من هاهنا أحق بالتقديم، وأولى بالتفضيل.

هذا، وقد قال بعض الحكماء والأدباء والعلماء: من تمام كرم المنعم التغافل عن حجته والإقرار بالفضيلة لشاكر نعمته، لأن المحاجة مغالبة، ولا تتم مودة إلاّ على المسامحة.

ولذلك قال الربعي لناس من العرب يختصمون: هل لكم في الحق أو خير منه؟ قالوا: قد عرفنا الحق، فما الذي خير منه؟ قال: التغافل فإن الحق مرٌّ ألاَّ ترى إلى بنت هرم بن سنان لما قالت لابنة زهير بن أبي سلمى في بعض المناحات، أو في بعض المزاورات: إنه ليعجبني ما أرى من حسن شارتكم، ونقاء نفحتكم. قالت ابنة زهير: أما والله لئن قلتِ ما قلَتِ فما ذلك إلاَّ من فضول ما وهبتم، ومن بقايا ما أنعمتم. قالت بنت هرم: لا بل لكم الفضلُ، وعلينا الشكر، أعطيناكم ما يفنى، وأعطيتمونا ما يبقى.

وقيل لعبد اللـه بن جعفر، حين أجزل لنصيب الشاعر في الهبة، وكثر لـه في العطيـة، أتنيل هذا العبد الأسود كل هذا النيل، وتحبوهُ بمثل هذا الحباء؟

فقال عبد اللـه بن جعفـر: أمـا واللــه لـئن كـان أسـود الجلـد إنـه لأبـيض الشـعر، أعطيناه دراهم تفنى، وثياباً تبلى، ورواحل تنضى، وأعطانا ثناء يبقى وحديثاً يثنى، ومكارم لا تبلى.فلهذه الخصال تكاملت خصال المجد فيهم، فظهر عنوان كرم الخـير علـيهم، فصـاروا في زمانهم مناراً، ولمن بعدهم أعلاماً. وليس تتم معاني كرم المنعم، ومعـاني وفـاء الشـاكر، حتـى تتوفى أقوالهما، وتتفق أهواهما على تدامع الحُجة، والإقرار بـالمعجزة، فيـزداد بـذلك المـنعم فضلاً والشاكر نبلاً.

هذا جملة القول في خصلتين من الأربع التي قدمنا ذكرها وشَهَرنا أمرها.

والخصلة الثالثة: الديانـة بالشـكر، والإخـلاص للمـنعم في تصـفية الـود، فـإن الـدَّين قائـد المـروءة، كـما أن المـروءة خَطِـامُ[1] الحميـة، وهـذه الخصـال وإن تشـعبت في بعـض الوجوه، وافترقت في بعـض الأمـاكن، فإنهـا ترجـع إلى نصـاب يجمعهـا، وإلى إنـاءٍ يحفظهـا، منــه نجمــت، وعنــه آنبثــت، وإليــه رجعــت، ولاجــتماعِ هــذه الخصــال عــلى مخالفــة الهوى، ومجانبة الهوينى، وعلى إتهام دواعي الشهوة، والامتنـاع مـن كَلـبَ الطبيعـة، وفـق الأولون بينها في جملة الاسم، وقارنوا بينها في جمهرة الحُـكمُ. ولذلك قال عمر بـن الخطـاب ﷺ: اعتبر عَزمهُ بحميته، وحَزمهُ بمتاع بيته. ومدار جميـع الأحـوال المحمـودة عـلى الصـبر، ولن يتكلف مرارة الصبر من يجهل عاقبة الصبر. وقالوا لما صار الشكر لا يحتمل إلاَّ بالصـبر، صار الشكر من نتاج الصبر. وكما أنه لا بد للحلم مـع كـرم الحلـم مـن الصـبر، فكـذلك لابـد

(1) الخطام: الزمام.

للشكر مع كرم الشكر من الصبر. فالصبر يجري مع جميع الأفعال المحمودة، كما يجري الهوى مع جميع الأفعال المذمومة.ولذلك قال رسول الله ﷺ: «خلق الله عز وجل النار وحفها بالشهوات، وخلق الجنة وحفها بالمكاره»[1].

والخصلة الرابعة: وصف ذلك الإحسان باللسان البين، بالبيان النير، وباللفظ العذب الشهي، والمعنى الشريف البهي، فإن الكلام إذا كان حسناً، جعلته الحكماء أدباً، ووجدت الرواة إلى نشره سبباً، حتى يصير حديثاً مأثوراً، ومجداً مذكورا، وداخلاً في أسمار الملوك، وسوقاً من أسواق المتأدبين، ووصلةً في المجالس، وزيادةً في العقل، وشحذاً للسان، وترهيفاً للقلب، وتلطيفاً للفكر وعمارةً للصدرِ وسُلماً إلى العُظماء، وسبباً إلى الجِلةِ الكُبراء.

وإذا لم يكن اللفظ رائعاً، والمعنى بارعاً، وبالنوادر مُوشحاً، وبالملح مجلواً، لم تصغ له الأسماع، ولم تنشرح له الصدور، ولم تحفظه النفوس، ولم تنطق به الأفواه، ولم يخلد في الكتب، ولم يقيد بالدرس ولم يجذل به قائل، ولم يلتذ به سامع، ومتى لم يكن كذلك كان كلاماً ككلام اللغو، ومعاني السهو، وكالهجر الذي لا يفهم، والمستغلق الذي لا يعلم.

وليس ـ أبقاك الله ـ شئ أحوج إلى الحذق، ولا أفقر إلى الرفق من النجم، كما أنه لا شئ أحوج إلى وُسع الطاقة، وإلى الفضل في القوة، وإلى البسطة في العلم، وإلى تمام العزم من الصبر.

(1) الحديث الذي ذكره الجاحظ لم أقف عليه بهذا اللفظ، لكن له شاهد في مسلم ومسند أحمد والترمذي من حديث أنس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «حُفتِ الجنة بالمكاره، وحُفتِ النار بالشهوات»، وهو في البخاري: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره».

وعلى أن الشكر في طبقات متفاوتة، ومنازل متباينة، وإن جمعها أسم، فليس يجمعها حكم، فربما كان كلاماً تجيش به الصدور، وتمجه الأفواه، وتجدف به الألسنة، ويستعمل فيه الرأيُ المقتضب، والخاطر المحتار، والكلام المرتجل، فيرمى به على عواهنه، وتبني مصادره على غير موارده، لا يتعذر فيه الشاكرون لانتفاع المنعمين، كما تعذر المنعمون لانتفاع الشاكرين.

وليست غاية القائل إلاَّ أن يُعدَّ بليغاً مفهوماً أو يستزيد به، إلى نعمه السالفة، نعماً آنفة أوليس إلاَّ ليغتر كريماً، أو يختدع غنياً لا يتفقدَّ ساعات القول، ولا يتعرف أقدار المستمحين؟ وليس غايته إلاَّ الكسب والتعرض والانتفاع والترنح، وعلى هذا يدور شكر المستأكلين، وإحماد المتكسبين.

وهذا الباب وان جعلته العوام شكراً، فهو بغير الشكر أشبه، وبذلك أولى وربما كان شكره عن تأنق وتذكير، وعن تخير وتخيير، وعن تفقد للحالات، وتحصيل للأمور في المقامات التي تحيط بمهجته، وبحضرة عَدوَّ لا يزال مترصداً لنعمته، فربما التمس الزيادة في غبطه، وربما التمس شفاء دائه، وإصلاح قلبه، ونفض المبرم من معاقد حقده على قدر البرد، وعلى قدر تصرف الحالات في المصلحة، لأن الشاكر كالرائد لأهله، وكزعيم رهطه، والمشار إليه عند مشورته، فربما اختار أن يكون شكره شعراً لأن ذلك أشهر، وربما أختار أن يكون كلاماً منثوراً، لأن ذلك أنبل، وربما أظهر اليسر،وانتحل الثروة، وجعل من الدليل على ذلك كثرة النفقة، وحسن الشارة، ويرى أن ذلك أصدق المدَحين، وأنبل الشاكرين، ويجعل قائدِه إلى هذا المذهب، وبين هذين الشاكرين طبقات معروفة، ومنازل معلومة، وموضع الشكر من قلب السامع في القبول والاستنامة على قدر

حسن النية، والذي يعرف بـه الشـاكر، مـن صـدق الـلـهجة، ومـن قلـة السـرف، واعتـدال المذاهب، والاقتصاد في القول.

وهذا باب سوى الباب الآخر، من حسن الوصف، وجودة الوصف[1].

قلت: هذا ما جاء في بعض رسالته وهي رسالة في غاية الحسن من الوصف والبلاغـة التي يتمتع بها هذا الأديب عفا الـلـه عنه.

رسالة الجاحظ لبعض إخوانه يذم فيه الزمان:

بسم الـلـه الـرحمن الـرحيم، حفظـك الـلــه حفـظ مـن وفقـه للقناعـة وأسـتعمله بالطاعة، كتبت إليك وحالي حال من كثفت غمومه وأشكلت عليه أموره وأشتبه عليه حال دهره ومخرج أمره وقل عنده من يثق بوفائه، أو يحمد مغبة[2] إخائه لاسـتحالة زماننـا وفسـاد أيامنـا ودولة أنذالنا، وقدماً كان من قدم الحياء عـلى نفسـه، وحكـم الصـدق في قولـه، وآثـر الحـق في أموره، ونبذ المشتبهات عليه من شؤونه، وتمت له السلامة وفاز بوفور حظ العافية، وحمد مغبة مكروه العاقبة، فنظرنا إذ حال عندنا حكمه وتحولت دولتـه فوجـدنا الحيـاء متصـلاً بالحرمـان، والصدق آفة على المال، والقصد في الطلب بترك اسـتعمال القحـة، وأخـلاق العـرض مـن طريـق التوكل دليلاً على سخافة الرأي، إذ صارت الحظوة الباسقة والنعمة السابغة في لؤم النية، وتنـاول الرزق من جهة محاشاة الوقار وملابسة قعَرَة العار.ثم نظرنا في تعقب المتعقب لقولنا، والكـاسر لحجتنا فأقمنا له علماً واضحاً، وشاهداً قائماً، ومناراً بيناً إذ وجـدنا مـن فيـه السـفولية الواضـحة

(1) صبح الأعشى (14 / 296).

(2) المغبة من كل شي: عاقبته وآخره.

والمثالب[1] الفاضحة والكذب المبرح[2] والخلف[3] المصرح والجهالة المفرطة والركاكة[4] المستخفة وضعف اليقين والأستيثاب[5] وسرعة الغضب والخفة قد أستكمل سروره وأعتدلت أموره وفاز بالسهم الأغلب والحظ الأوفر والقدر الرفيع والجواب الطائع[6] والأمر النافذ إما زل قيل حكم وإن أخطأ قيل أصاب وإن هذي[7] في كلامه، وهو يقظان قيل رؤيا صادقة في سنة مباركة.

فهذه حجتنا ـ أبقاك الله ـ على من زعم أن الجهل يخفض[8] وان الحمق يضع وان النوك يردي[9] وأن الكذب يضر وأن الخلف يرزي[10].

ثم نظرنا في الوفاء والأمانة والنبل والبراعة وحسن المذهب وكمال المروءة وسعة الصدر وقلة الغضب وكرم الطبيعة. والفائق في سعة عمله والحاكم على نفسه والغالب لهواه فوجدنا فلان بن فلان ثم وجدنا الزمان لم ينصفه من حقه ولا قام له بوظائف فرضه، ووجدنا فضائله القائمة له قاعدة به فهذا دليل على أن الطَّلاحَ[11] اجدى من الصَّلاح وأن الفضل قد مضى زمانه وعفت آثاره

(1) المثالب: العيوب.
(2) المبرح: المشتد.
(3) الخُلف: كثير الاختلاف، والخَلْفُ: الرديء من القول.
(4) الركاكة: الضعف والرقة.
(5) الاستيثاب: سأله أن يثيبه.
(6) أي لا يجاب إلاَّ بما فيه طاعته.
(7) هذي فلان: تكلم بغير معقول.
(8) يخفض: ينقص.
(9) يردي: يهلك.
(10) يرزي: يعيب.
(11) الطلاح: الفساد.

وصارت الدائرة عليه كما كانت الدائرة على ضده ووجدنا العقل يشقى به قرينه كما أن الجهل والحمق يحظى به خذينه[1] ووجدنا الشعر ناطقاً على الزمان ومعرباً عن الأيام. حيث يقول:

تحَامقْ مَع الحمقْى إذَا مَا لقيتهَم ... ولاقِهمُ بالجَهلِ فعِل أخي الجهلِ
وخَلطْ إذا لاقَيتَ يومَاً مخُلطاً ... يخلط في قولِ صحيحٍ وفي هزلِ
فإني رأيتُ المرءَ يشقىَ بعَقلهِ ... كمَا كَانَ قَبلَ اليَومَ يسَعدُ بالعَقلِ

فبقيت أبقاك الله، مثل من أصبح على أوفاز[2] ومن النُقلة على جهاز لا عقابيلها[3] فلو أن الدعاء أجيب والتَّضرعَ سُمع لكانت الهدة العظمى، والرجفة الكبرى، فليت الذي يا أخي ما استبطئهُ من النفخة، ومن فجأة الصحبة قُضَي فحان، وأذنَ به فكان، فوالله ما عُذَبت أمةُ برجفةٍ، ولا ريحٍ ولا سخطة، عذاب عيني برؤية المغايظة المضنية، والأخبار المهلكة، كأن الزمان توكل بعذابي، أو انتصب لإيلامي، فما عيش من لا يسر بأخٍ شقيق، ولا خَدن شفيق ولا يصطبح في أول نهاره إلا برؤية من تكره رؤيته، ونعمة من تُغُمه طلعته فبدّل الله لي ـ أي أخي ـ بالمسكن مسكناً وبالربع ربعاً فقد طالت الغمة وواطنت الكربة[4] وادلهمت الظلمة وخمد السراج، وتباطأ الانفراج، والسلام[5].

(1) خذينه: صديقه.
(2) على أوفاز: على عجلة.
(3) عقابيلها: العقابيل الشدائد وبقايا العلة.
(4) وواطنت الكربة: عايشها.
(5) العقد الفريد (7 / 171).

فصول بليغة للجاحظ

فصول في عتّاب

«أما بعد، فإن المكافأة بالإحسان فريضة، والتفضل على غير ذوي الإحسان نافلة».

«أما بعد، فليكن السكوت على لسانك، إن كانت العافية من شأنك».

«أما بعد، فلا تزهد فيما رغب إليك، فتكون لحظك معانداً، وللنعمة جاحداً».

«أما بعد، فإن العقل والهوى ضدان فقرين العقل التوفيق وقرين الهوى الخذلان والنفس طالبة فبأيهما ظفرت كانت في حزبه».

«أما بعد، فإن الأشخاص كالأشجار، والحركات كالأغصان، والألفاظ كالثمار».

«أما بعد، فإن القلوب أوعية، والعقول معادن، فما في الوعاء ينفذ، إذا لم يمده المعدن».

«أما بعد، فكفى بالتجارب تأديباً، وتقلب الأيام عظة، وبأخلاق من عاشرت معرفة، وبذكر الموت زاجراً».

«أما بعد، فإن أهل النظر في العواقب أولوا الاستعداد للنوائب، وما عظمت نعمة أمريءٍ إلاَّ استغرقت الدنيا همته، ومن فرغ لطلب الآخرة شغله، جعل الأيام مطايا عمله، والآخرة مقيل مرتحلةٌ».

«أما بعد، فإن الاهتمام بالدنيا غير زائد في الرزق والأجل والاستغناء غير ناقص للمقادير».

«أما بعد، فإنه ليس كل من حلم أمسك وقد يستجهل الحليم حتى يستخفه الهجر».

«أما بعد، فإن أحببت أن تتم لك المقة في قلوب إخوانك فاستقل كثيراً مما توليهم».

«أما بعد، فإن أنظر الناس في العاقبة والتجاوز، واستل حقده بالرفق والتحبب».

وكتب الجاحظ إلى أبي حاتم السجستاني وبلغه عنه أنه نال منه: «أما بعد، فلو كففت عنا من غربك، لكنا أهلا لذلك منك والسلام».

فلم يعد أبو حاتم إلى ذكره بقبيح.

وله فصول في وصاه:

«أما بعد، فإن أحق من أسعفته في حاجته وأجبته إلى طلبته، من توسل إليك بالأمل ونزع نحوك بالرجاء».

«أما بعد، فما أقبح الأحدوثة من مستمنح حرمته وطالب حاجة رددته، ومثابر حجته ومنبسطة إليك قبضته ومقبل إليك بعنانه لويت عنه فتثبت في ذلك: ﴿ولا تطع كل حلاف مهين * همار مشاء بنميم ﴾ [القلم:10-11]».

«أما بعد، فإن فلاناً أسبابه متصلة بنا، يلزمنا ذمامه، وبلوغ موافقته من أياديك عندنا، وأنت لنا موضع الثقة من مكافأته، فأولنا فيه ما تعرف موقعنا من حسن رأيك، ويكون مكافأة لحقه علينا».

«أما بعد، فقد أتانا كتابك في فلان، وله لدينا من الذمام ما يلزمنا مكافأته ورعاية حقه، ونحن من العناية بأمره على ما كان في حرمته ويؤدي شكره».

وله فصول في استنجاز وعد:

«أما بعد، فقد رسفنا في قيود مواعيدك، وطال مقامنا في سجون مطلك فأطلقنا أبقاك الله من ضيقها وشديد غمها بنعم منك مثمرة أو لا مريحة».

«**أما بعد،** فإن شجر مواعيدك قد أورقت، فليكن ثمرها سالماً من جوائح المطل، والسلام».

«**أما بعد،** فإن سحائب وعدك قد برقت، فليكن وبُلها سالماً من صواعق المطل والاعتلال».

وله فصول في الاعتذار:

«**أما بعد،** فنعم البديل من الزلة الاعتذار، ولبس العوض، من التوبة الإصرار».

«**أما بعد،** فإن أحق ما عطفت عليه بحلمك من لم يتشفع إليك بغيرك».

«**أما بعد،** فإنه لا عوض من إخائك، ولا حلف من حسن رأيك، وقد انتقمت مني في زلتي بجفائك، فأطلق أسير تشوقي إلى لقائك».

«**أما بعد**، فإنني بمعرفتي بمبلغ حلمك وغاية عفوك ضمنت لنفسي العفو من زلتها عندك».

«**أما بعد**، فإن من جحد إحسانك بسوء مقالتك فيك، مكذب نفسه بما يبدو للناس منه».

«**أما بعد**، فقد مسني من الألم ما لم يشفه غير مواصلتك مع حبسك الأعتذار من هفوتك ولكن ذنبك تغتفره مودتك فامنن علينا بصلتك تكن بدلا من مساءتك وعوضاً من هفوتك».

«**أما بعد**، فلا خير فيمن استغرقت موجدته عليك قدرك عنده ولم يتسع لهنات الإخوان».

«**أما بعد**، فإن أولى الناس عندي بالصفح من أسلمه إلى ملكك التماس رضاك من غير مقدرة منك عليه».

«**أما بعد**، فإن كنت ذممتني على الإساءة فلم رضيت لنفسك المكافأة».

وله فصول في التعازي:

«**أما بعد**، فإن الماضي قبلك الباقي لك والباقي بعدك المأجور فيك ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ [الزمر: 10]».

«**أما بعد**، فإن في الله العزاء من كل هالك والخلف من كل مصاب، وإنه من لم يتعز بعزاء الله تنقطع نفسه من الدنيا حسرة».

«**أما بعد**، فإن الصبر يعقبه الأجر والجزع يعقبه الهلع فتمسك بحظك من الصبر تنل به الذي تطلب وتدرك به الذي تأمل».

«**أما بعد**، فقد كفى بكتاب الـلـه واعظاً ولذوي الألباب زاجراً فعليك بالتلاوة تنج ما أوعد الـلـه به أهل المعصية»[1].

خبر الرقعة التي أرسلها الجاحظ إلى إبراهيم بن المدبر:

قال عبد الـلـه بن جعفر الوكيل: كنت يوماً عند إبراهيم بن المدُبَـرّ فرأيت بين رُقعةً يردد النظر إليها، فقلت له: ما شأن هذه الرقعة؟ كأنه استعجم عليك شيء منه، فقال: هـذه رقعة أبي عثمان الجاحظ، وكلامه يعجبني وأنا اردده على نفسي لشدة إعجـابي، فقلـت: هـل يجوز أن أقرأها؟ قال: نعم، وألقاها إليَّ فإذا فيها: «ما ضاء لي نهار ولا دجا ليلُ مُـذ فارقتـك إلاّ وجدت الشوق إليك قد حز في كبدي، والأسف عليك قد أسقط في يدي، والنزاع نحوك قد خان جلدي، فأنا بين حشاً خافقة ودمعة مهراقة، ونفس قد ذبلت بما تجاهـد، وجـوانح قـد أبليت بما تكابد، وذكرت وأنا على فراش الارتماض ممنوع من لذة الإغماض قول بشار:

إذاَ هتـــَفَ القُمـــريُ نـــازَعَني الهـــوَىَ بشَـوق فلـم أملِـكْ دُمـوُعي مَـنِ الوَجـدِ
أبـــَى الـلــــه ألاَّ أن يُفـــرقَ بينَنـــا وكنــا كـماءَ المــزُنِ شَـيِبَ مَـعَ الشّـهدِ
لقَـــدْ كَـــانَ مـــا بيَنـــي زَمَانـــاً وبينَهـــا كـــمَا كَـــانَ بـــيَنْ المسَـــكِ والعَنــبرِ الــوَردِ

فـانتظم وصَـفُ مـا كنـا نتعـاشر عليـه، ونجـري في مودتنـا إليـه في شـعره هـذا وذكــرت أيضــاً مــا رمــاني بــه الــدهر مــن فرقــة أعــزائي مــن أخــواني الــذين أنــت أعزهم، ويمتحنني بمـن نـأى مـن أحبـائي وخلصـائي الـذين أنـت أحـبهم وأخلصـهم. ويجـر

(1) العقد الفريد (4 / 285 - 287).

عينه من مرارة نأيهم وبعد لقائهم وسألت الله أن يقرن آيات سروري بالقرب منك، ولين عيشي بسرعة أوبتك، وقلت أبياتاً تقصر عن صفة وجدي، وكنه ما يتضمنه قلبي». وهي:

يخدي مِنْ قَطرِ الدُمُوعُ ندُوب وبَالقَلبِ مني مُذ نأيتَ وجَيبُ
وَلِي نفسُ حَتَّى الدُجىَ يَصَدعُ الحشَا ورَجَعُ حنَينٍ للفَؤادِ مُذيبُ
وَلِي شَاهدُ مِنْ ضَّرَ نفَسي وَسُقَمِهِ يُخبَرُ عَني أننَي لكَئَيِبُ
كأنيَ لمَ أفُجعُ بفِرقِةِ صاحبٍ ولا غَابَ عِن عيَني سَواكَ حَبيَبُ

فقلت لابن المدبر: هذه رقعة عاشقٍ لا رُقعةُ خادمٍ، ورقعة غَائبٍ لا رَقعةَ حَاضرٍ، فضحك وقال: نحن ننبسط مع أبي عثمان إلى ما هو أرق من هذا وألطف فأما الغيبة فإننا نجتمع في كل ثلاثة أيام وتأخر ذلك لشغل عرض لي فخاطبني فخاطبة الغائب وأقام انقطاع العادة مقام الغيبة(1).

وكتب إلى قُليب المغربي:

«والله يا قليب، لولا أن كبدي في هواك مقروحة، وروحي بك مجروحة، لساجلتك هذه القطيعة، وماددتك حبل المُصارمة، وأرجو أنَّ الله تعالى يديل صبري من جفائك، فيردك إلى مودتي، وأنف القِلى راغم، فقد طال العهدُ بالاجتماع، حتى كدنا نتناكر عند الالتقاء»(2).

❁ ✿ ❁

(1) معجم الأدباء (16/92-94).
(2) سرح العيون ص 255.

باب
أخبار الجاحظ في أيامه الأخيرة

خبر إصابة الجاحظ بالفالج والنقرس:

قلت: قيل أنَّ سبب علة الجاحظ، أنه حضر مائدة ابن أبي داود وفي الطعام سمك ولبن، وكان ابن بختيشوع الطبيب حاضراً، فنهاه عن الجمع بينهما، فقال الجاحظ: إنَّ السمك إنَّ كان مضاداً للبن فإني إذا أكلتها دفع كل منهما ضرر الأخر، وإنَّ كانا متساويين فكأني أكلتُ شيئاً واحداً. فقال ابن بختيشوع: أنا لا أحسن الكلام، ولكن إن شئت أن تجرب فكل، فأكل فأصابه فالج عظيم ونقرس، حتى دخل عليه بعض أصحابه فقال له: كيف حالك فقال: اصطلحت على الإعلال ولو خرج شقي الأيمن ما أحسست به من الفالج ولو مرت على شقي الأيسر ذبابة أوجعتني، وأشد ما أشكو التسعون[1].

قلت: يعني التسعون: أي أنه بلغ هذا العمر.

قال يموت بن المزرع: وكان يعني الجاحظ - يطلي نصفه الأيمن بالصندل والكافور، لشدة حرارته، والنصف الآخر لو قرض بالمقاريض ما شعر به من خدره وبرده.

(1) سرح العيون ص 253.

قول الجاحظ للمتطبب يشكو إليه علته:

وقال الجاحظ للمتطبب يشكو إليه علتهُ: اصطلحت الأضرار على جسدي إن أكلت بارداً أخذ برجلي وإن أكلت حاراً أخذ برأسي[1].

خبر دخول المبرد على الجاحظ أيام علته:

وحَدَثَّ المـُبَرَد قال: دخلت على الجاحظ في آخر أيامه فقلت له: كيف أنت؟ فقال: كيف يكون من نصفه مفلوج لو خز بالمناشير ما شعر به ونصفه الآخر منقرسُ[2] لو طار الذباب بقربه لآلمه، وأشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها، ثم أنشدنا:

أتَرجَوُ أنّ تُكونَ وأنَتَ شَيخُ ... كَمَا قد كَنُتَ أيَامَ الشبابِ

لقَد كَذَبتَكْ نفَسكُ ليَسَ ثَوبُ ... دَرِيسُ كالَجَديدِ مِن الثَيابِ[3]

قلت: من هذه الرواية يتبين لنا أن الجاحظ في علته تلك قد تجاوز التسعين من عمره.

رسول المتوكل يطلب الجاحظ:

ويروى عن عَبدان الطبيب قال: دخلنا على الجاحظ نَعَودُه، فأتى إليه رسول المتوكل يطلبه، فقال: وما يصنع أمير المؤمنين بشق مائل، ولعاب سائل؟ ما تقولون في رجُلٍ له شقان: أحدهما لو غرز بالمسال ما أحسّ، والآخر يمر به

(1) معجم الأدباء (114/16).
(2) النقرس: هو ورم ووجع في مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين.
(3) معجم الأدباء (113/16).

الذباب فيغوث، وأكثر ما أشكو الثمانون[1]، ثم انشد أبياتاً من قصيدة عوف بن محلم الحراني يعني التي فيها:

أن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان[2]

قلت: وهذا ربما كان هذا في أول علته، فإن المتوكل ووزيره ابن خاقان قد قُتلا بعد سنة سبع وأربعين ومائتين، والجاحظ قد توفي سنة خمس وخمسين ومائتين. وكان الجاحظ قد عُمَر وبقي كلحم على قضم.

ويروى عن المبرد، أنه دخل عليه وهي نفس الرواية السابقة إلاَّ في آخرةً يقول الجاحظ: «أني قد جاوزت التسعين».

خبر الجاحظ وزواره:

قلت: كان الجاحظ يستقبل زواره، ولكن ليس في كل مرة يستطيع ذلك، فقد كُبرَ سنهُ واقعد وليس عنده إلا الكلام والحديث.

ومع هذا وذاك فقد كان نشيط وذاكرته لم تفتر، يروى أن أحمد بن إسماعيل السقطي قال: سمعت أبا سعيد البصري قال: قدمت على الجاحظ بعد ما كُبرَ سنهُ فقلت له: حدثني، فقال: أكتب الأمصار عشرة: الصناعة بالبصرة، والفصاحة بالكوفة، والتخنيث ببغداد، والغدر بالري والجفاء بنيسابور، والحسد بهراة، والطرمذة بسمرقند، والمروءة ببلخ والبُخل بمرو، والتجارة بمصر[3].

---

(1) تاريخ الإسلام للذهبي (18 /385).

(2) في رواية أخرى عند ابن عساكر في تاريخه (45/ 443).

(3) تاريخ دمشق (441/45).

خبر البرمكي وقدومه على الجاحظ:

قال بعض البرامكة: كنت أتقلد السند فاتصل بي أني صرفت عنها وكنت كسبت ثلاثين ألف دينار فخفت أن يفأجني الصارف، ويُسعى إليه بالمال، فَصُغتهُ عشرة آلاف إهليلجة[1]، في كل إهليلجة ثلاثة مثاقيل وجعلتها في رحلي، ولم أبعد أن جاء الصارف فركبت البحر وانحدرت إلى البصرة، فُخبرتُ أن بها الجاحظ، وأنه عليل، فأحببت أن أراه قبل وفاته، فصرتُ إليه، فأفضيتُ إلى باب دار لطيف، فقرعته فخرجت إليَّ خادمُ صفراء فقالت: من أنت؟ فقلت: رجل غريب أحَبَّ أن يدخل إلى الشيخ فيسر بالنظر إليه، فأدت ما قلت، وكانت المسافة قريبة لصغر الدهليز والحجرة، فسمعته يقول: قولي له: وما تصنع بشق مائل ولعاب سائل ولون حائل؟ فأخبرتني، فقلت: لابد من الوصول إليه، فقال: هذا رجل قد أجتاز بالبصرة فسمع بي وبعلتي،. فقال: أراه قبل موته لأقول: قد رأيت الجاحظ.

فدخلت فسلمت فرد رداً جميلاً وأستدناني وقال من تكون؟ أعزك الله، فانتسبتُ له، فقال: رحم الله أباك وقومك الأسخياء الأجواد، الكرام الأمجاد، لقد كانت أيامهم روض الأزمنة ولقد أنجبر بهم خلق، فسقياً لهم ورعياً، فدعوت له، وقلت: أنا أسأل الشيخ أن ينشدني شيئاً من الشعر أذكره به. فأنشدني:

لئن قُدمت قلبي رجالُ فطالما ... مشيتُ على رسلي فكَنتُ المقُدمَا
ولكِنَ هذا الدِهرَّ تأتي صُرُوفهُ ... فَتِبرمُ منقِوُصاً وتنَقض مُبرماً

(1) الإهليلج: هو ثمر قريب الشكل من البلح. يريد أنه صاغ الذهب على شكل الإهليلج.

ثم نهضَتُ، فلما قاربت الدهليز صاح بي فقال: يا فتى أرأيت مفلوجاً ينفعه الإهليلج؟ فقلت: لا. قال: فأنا ينفعني الإهليلج الذي معك، فأنفذ إليَّ منه، فقلت: السمع والطاعة وخرجت مفرط التعجب من وقوعه على خبري، حتى كأن بعض أحبابي كاتبه بخبري حين صغته فأنفذت إليه مائة إهليلجة[1].

تأسف الجاحظ لعدم انتفاعه بالخير:

قال القلابي: دخلت على الجاحظ من منصرفي من عند السلطان، وقد حسنت حاله، واشتدت به علته فسألته فقال: كنا إذا أردنا مرة لم نجد حتى إذا نحن وجدنا لم نرد[2].

وفاة الجاحظ:

قلت: أخُتلف في سنة وفاته، وفيه نظر، ولكن أصح الأقوال أنه سنة خمس وخمسين ومائتين.

يروى أحمد بن يزيد محمد المهلبي عن أبيه قال: قال لي المعتز بالله: يا يزيد ورد الخبر بموت الجاحظ، فقلت: لأمير المؤمنين طول البقاء، ودوام العز، قال: وذلك سنة خمس وخمسين ومائتين.

قال لي المعتز: قد كنت أحب أن أشخصه إليَّ، وأن يقيم عندي، فقلت له: إنه كان قبل موته عطلاً بالفلاج.

قال احمد بن يزيد وفيه يقول أبو سراعة:

(1) زهر الآداب وثمر الألباب (2 / 233).
(2) محاضرات الأدباء (2 / 290)

في العلـــم للعلـــماء أن   يتفهمـــــوه واعـــــظ
وإذا نسـيت وقـد جمعـت   عـــلا عليـــك الحـــافظ
ولقـد رأيـت الظـرف دهـراً   مـــا حــــواه لافـــظ
حتـــى أقـــام طرقـــه   عمـرو بـن بحـر الجـاحظ
ثـــم انقضـــت أيامـــه[1]   وهـــو الـــرئيس الغـــائظ

قال الخطيب: قرأت في كتاب عمرو بن محمد بن الحسن البصير، عن محمد بن يحيى الصولي قال: مات الجاحظ في المحرم سنة خمس وخمسين ومائتين[2].

وقال أبو سليمان زبر في الوفيات: توفي سنة خمس ومائتين[3].

قلت: وقيل أنه مات أثر سقوط قسم من كتبه فوق رأسه، وهو جالس كعادته يقرأ، فقضت عليه، فهو مصاب بالفالج ـ الشلل ـ ولهذا لم يكن بوسعه الفكاك من هذه الكتب التي انهالت عليه، والله أعلم.

(1) في تاريخ بغداد وفيه (ثم انقضى أمد به).
(2) تاريخ دمشق (45/ 443 - 444).
(3) تاريخ الإسلام للذهبي (18/ 375).

خاتمة

قَال أَبَي الْحَسَن تَرِكِي الدَّهمَانيّ غَفَر الـلـه لَهُ وَلوالديِه: هَذَا مَا تَيَسَّر لِي بِفَضْل الْكَرِيم الْجَوَاد، تصنيف كِتَاب «أَخْبَار الجاحظ» سائلاً الْمُوَلَّى جَلّ جَلّالَهُ أَن يَنْفَـع بَـه كاتبَـه وَقَارِئـهِ وَسَامَعَهُ، وَكَان الْفَرَاغ مِنْ تأَلِيفهِ يَوِم الْأَرْبِعَاء الثامَن وَالعِشْـرِين مِنْ ذَو الْقَعْـدَة مِـنْ شُـهَور سَنَة تِسْعَة وَعِشْرِين وأربعمَائة وَأَلْف مِنْ الَهجرة النَبوَيةِ الشَرِيفَة.

وَصَلَّى الـلـه عَلَى نَبِيِّنَا مُحمَّد وَعَلَى آلِه الطَيبِين وَصَحَبِه أجَمعَين

وَسَلم تَسلَيِماً كَثيِراً

قائمة المصادر والمراجع

1ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي.

2ـ سير أعلام النبلاء للذهبي.

3ـ الفرق بين الفِرق للخطيب البغدادي.

4ـ وفيات الأعيان لابن خلكان.

5ـ طبقات المعتزلة لابن المرتضى.

6ـ البيان والتبيين للجاحظ.

7ـ تاريخ الإسلام ـ للذهبي.

8ـ مروج الذهب ـ للمسعودي.

9ـ تاريخ دمشق ـ لابن عساكر.

10ـ لسان الميزان ـ لابن حجر العسقلاني.

11ـ رسائل الجاحظ ـ تحقيق عبد السلام محمد هارون.

12ـ المقابسات ـ لأبي حيان التوحيدي.

13ـ سرح العيون ـ لابن نباته المصري.

14ـ الحيوان ـ للجاحظ.

15ـ معجم الأدباء ـ لياقوت الحموي.

16ـ خاص الخاص ـ للثعالبي.

17ـ الصناعتين ـ للعسكري.

18ـ مقدمة ابن خلدون.

19ـ البخلاء ـ للجاحظ.

20ـ المحاسن والأضداد ـ للجاحظ.

21ـ البرصان والعرجان ـ للجاحظ.

22ـ زهر الآداب وثمر الألباب ـ لأبي إسحاق القيرواني.

23ـ الفرج بعد الشدة لأبي علي التنوخي.

24ـ محاضرات الأدباء ـ للراغب الأصفهاني.

25ـ نثر الدُر ـ لأبي سعد منصور الآبي.

26ـ ثمرات الأوراق ـ لابن حجة الحموي.

27ـ العقد الفريد ـ لابن عبد ربه الأندلسي.

28ـ مجالس العلماء ـ للزجاجي.

29ـ أخبار النساء ـ لابن قيم الجوزية.

30ـ المستطرف في كل فن مستظرف ـ للابشيهي.

31ـ الأمالي ـ لأبي علي القالي.

32ـ الأغاني ـ لأبي الفرج الأصفهاني.

33ـ بهجة المجالس ـ لابن عبد البر السقرطي.

34ـ الأمالي ـ للمرتضى.

35ـ كتاب الأوراق ـ لأبي بكر الصولي.

36ـ آثار البلاد وأخبار العباد ـ للإمام زكريا القرويني.

37ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا ـ للعلامة القلقشندي.

تم بحمد اللـه

طبع في أمواج



الأردن - عمان - ماركا الشمالية - دوار المطار
ص.ب ٣٣٠٩٥٩ - الرمز البريدي ١١١٣٤ عمان
تلفاكس : ٠٠٩٦٢٦ ٤٨٨٣٦١
E-mail: amwajpub@yahoo.com

9 789957 528461